رواية

عبدالله صخي

اللاجئ العراقي

SCANNED BY JAMAL HATMAL

أبو عبدو البغل

اللاجئ العراقي

رواية

Author: **Abdullah Sakhi**

Title: **The Iraqi Refugee**

Cover Designed by: **Majed Al-Majedy**

P.C.: **Al-Mada**

First Edition: **2017**

Copyright © **Al-Mada**

اسم المؤلف: **عبدالله صخي**

عنوان الكتاب: **اللاجئ العراقي**

تصميم الغلاف: **ماجد الماجدي**

الناشر: **دار المدى**

الطبعة الأولى: 2017

جميع الحقوق محفوظة: **دار المدى**

للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي ابو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141
Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141
www.almada-group.com email: info@almada-group.com
+ 964 (0) 770 2799 999
+ 964 (0) 770 8080 800
+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: الحمرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الأول
dar@almada-group.com
+ 961 706 15017
+ 961 175 2616
+ 961 175 2617

دمشق: شارع كرجية حداد- منفرع من شارع 29 أيار
al-madahouse@net.sy
ص.ب: 8272
+ 963 11 232 2276
+ 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced or stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means; electronic, mechanical, photocopying, recoding or otherwise, without the prior permission in writing of the publisher.

لايجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو تخزين أي مادة بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو، أو بأي طريقة سواء كانت الكترونية أو ميكانيكية، أو بالتصوير، أو بالتسجيل أو خلاف ذلك، إلا بموافقة كتابية من الناشر مقدّماً.

عبدالله صخي

اللاجئ العراقي

Bibliothèque - Discothèque
COURONNES
66, Rue des Couronnes
75020 PARIS
Tél. 01 40 33 26 01 Fax 01 47 97 16 34

-١-

حين رأته الفتاة الإنكليزية لأول مرة فزعت. ارتجف جسدها، واتسعت عيناها، وكادت تتراجع إلى الحمّام الذي خرجت منه. بحركة خاطفة تأكدت من إحكام المنشفة الصفراء الكبيرة حول جسدها، فيما وقف ساكنا يحمل طستا بلاستيكيا وضع فيه أغطية سرير ووسائد لغسلها. أحنت رأسها لتتفادى نظرته القانطة الحزينة فتدلى شعرها الأشقر وتسربت منه قطرات ماء بلورية. أسرعت في اجتياز المسافة القصيرة التي تفصل غرفتها عن الحمّام المشترك بين ساكني الشقة. أغلقت الباب وراءها بقوة كأنها تخشى أن يلحق بها. ومع الإغلاق تلاشت أنغام موسيقية خفيضة كانت تنبعث من الغرفة التي تركت بابَها مواربا قبل الاستحمام.

دخل الحمّام. لم يزل ساخنا. شم عطر الصابون الذي اغتسلت به فيما البخار يتسرب من نافذة صغيرة علوية نصف مفتوحة تكشف عن سماء رمادية. غسل أغطية الوسائد. عصرها من الماء بيدين واهنتين وألقاها في الطست البلاستيكي. عاد إلى غرفته ونشرها في أماكن متفرقة. فتح حقيبته فوق السرير وأخرج ملابسه قطعة قطعة وأخذ يرتبها في الخزانة الطولية الضيقة.

كانت غرفتها رقم ٧ تقابل غرفته رقم ٩، وثمة غرفة أخرى تحمل الرقم

٨ لم يَسمع أيَ حركة فيها منذ أن وصل إلى هنا قبل نحو ساعتين. تلك الغرف الثلاث تكوّن شقة بمنافع مشتركة، ماعدا المطابخ فهي داخلية، في طابق أول ملحق بمُجمّع كبير من الغرف والشقق المفروشة المعدة للاستئجار في حي أكتن تاون غرب لندن. للمُجمّع مدخل في الجانب الآخر يطل على شارع فرعي، لا يرى من موقع الشقة التي يصعد إليها مستأجروها بواسطة سلم حديدي خلفي مطلي بلون أسود. الطابق الأرضي، من الجهة الأمامية، تشغله حديقة مشتركة شبه مهجورة تظللها أشجار كثيرة متشابكة الأغصان تتصل بالشارع الفرعي. ومن الجهة الخلفية يشغله محل أدوات احتياطية للسيارات، وآخر للأدوات المنزلية، وخياط، ومتجر زهور، وصالون حلاقة للسيدات، ومرأب لسيارات النزلاء، كلها في صف واحد يتصل برصيف واسع لشارع عام. تظل أبواب ونوافذ الغرف والشقق المجاورة والبعيدة موصدة كأنها غير مأهولة، أماكن منعزلة يهيمن عليها الصمت والسكون، يفصلها الخشب والحديد والإسمنت.

***

في أول صباح له في الغرفة رقم ٩ استيقظ مبكرا بعد أن أمضى ليلة بلا سكينة. نوم مضطرب متقطع تخللته سلسلة من الأحلام والكوابيس الناقصة أو الغامضة، بعضها مخيف يبعث الرعدة في جسده كلما تذكره. ليس تفاصيل الأحلام التي يتذكرها إنما لحظات الرعب التي تخلفها والرجفة التي تعقبها. اجتاز الفسحة التي تتوسط الغرف الثلاث. ليس هناك ما يدل على أن أحدا استيقظ قبله. اغتسل وخرج لشراء مواد غذائية من الدكاكين القريبة.

وهو ينزل الدرجات الحديدية المؤدية إلى ممر قصير يقود إلى الشارع

العام نظر إلى مُجمَّع الغرف على يساره. كان رماديا صامتا يهيمن عليه السكون الصارم، وكانت الحديقة خالية معتمة. انعطف يمينا نحو الشارع العام. مشى بمحاذاة محلات الطابق الأرضي. لم تزل مغلقة ماعدا مرأب سيارات النزلاء في الطرف البعيد. كانت السماء ملبدة بغيوم سوداء والشوارع الإسفلتية المبللة بمطر الليل تعكس أضواء السيارات. من أقرب بقالة اشترى خبزا وبيضا وجبنا وقهوة وعلبة شاي وسكرا وقنينة زيت.

بدأت السماء تمطر رذاذا خفيفا ناعما أثناء عودته. ارتقى الدرجات الحديدية مستندا على الدرابزون فقطرات الماء الشفافة الهابطة غير المرئية تجعلها ملساء زلقة. داخل الفسحة أمام باب غرفته أنزل الأكياس. وهو يخرج المفتاح من جيبه أطلت من الباب رقم ٧ الفتاة الانكليزية. كانت ترتدي قميصا أبيض وبنطالا من الجينز أزرق قصيرا جدا. بدت ساقاها ساطعتين رغم الضوء الشحيح المتسرب من باب الشقة في مثل ذلك الوقت من النهار. كانت عيناها مشرقتين ساحرتين ونظرتها حانية حميمة. حيّته بود وهي تتقدم نحوه. صافحته مبتسمة وقالت:

– أنا ساندرا

– أنا علي، علي سلمان.

وأضاف:

– أعتذر عما حدث أمس.

فسارعت إلى القول:

– لا، لا، أبدا، لم يحدث شيء. فوجئت بوجودك في الشقة. فغرفتك لم يستأجرها أحد منذ فترة طويلة. التفتت ناحية اليسار وأضافت:

– وهذه الغرفة رقم ٨ لا تزال شاغرة، من أي بلد أنت؟

– من العراق.

– آه، أوكي.

طلع من غرفتها شاب نحيف. قالت وهي تقدمه:

– صديقي مارتن.

وخاطبت صديقها:

– مارتن هذا النزيل الجديد، علي!.

وأضافت:

– اسمك علي. صحيح؟

– نعم، علي.

صافحه مارتن وقال:

– هلو علي، سعيد بلقائك.

شعر علي سلمان بارتياح إذ تحرر من هم ثقيل سبّبه اللقاء المتوتر مع ساندرا يوم أمس. حمل الأكياس. تمتم مرتبكا بكلمات لم يفهما منها سوى: «أراكما في ما بعد».

***

في غرفته جلس على طرف السرير يتأمل صوت ساندرا الكريستالي ويستعيد صورتها الباهرة الملهمة. لقد أشاعت في قلبه المكلوم فرحا طفوليا بذلك البريق الذي يشع من عينيها اللتين تنافسان الكواكب. احتضن وجهه بيديه يفكر في حياة هذين الشابين الهادئة ويقارنها بحياته المهددة على الدوام وحياة جيله الذي يعاني من دورة العنف السياسي، والتعذيب الوحشي في السجون، والحب الممنوع، والحرمان الجنسي، وانعدام الفرص، والقسوة، والانتهاكات، والاعتداء، وغياب التسامح، والعقاب العائلي بالضرب المبرِّح أو الحرمان من الطعام لأدنى هفوة. تلك الحياة المتوترة الجافة القاحلة تفقد المرء صوابه وتدفعه لارتكاب أبشع الأخطاء.

وهو في جلسته الطويلة الصامتة خطرت له ذكرى ذلك اليوم، هي أبعد ذكرى استطاع أن يمسك بها عن والده سلمان اليونس.

ففي ظهيرة يوم جمعة عاد الوالد من سوق باب الشيخ حاملا مخلاة صوفية لها ألوان سجادة. وقبل أن يتناول طعام الغداء أخرج منها كيسين ورقيين وأفرغ محتوياتهما: نوعين من التبغ خشن وناعم وضعهما جانبا. ومن كيس ثالث استل قطعة قماش سوداء، عميقة السواد، مطرزة بخيوط طولية متكسرة ذهبية براقة.

قال وعيناه تتطلعان في القماش:

– يسمونه «ضوه الليل». – وارتسمت على شفتيه ابتسامة واهنة نادرة.

تناولتها مكية الحسن وعرضتها للضوء فاندهشت من وميضها. رفضتها بخجل قائلة إنها لا تناسب سنها، فأخذتها حليمة. كان علي جالسا أمام

أبويه يتطلع باستغراب في الأكياس الثلاثة التي أفرغت و لم يحصل منها على شيء عندما سحب الأب من المخلاة مصباحا يدويا. فتحه من نهايته وأسقط فيه بطارياته واحدة تلو الأخرى وأغلقه. ضغط على زر في الأعلى ودفعه إلى الأمام فأرسل المصباح ضوءا خافتا في النهار. قفز علي واختطفه من يد والده وراح يضيئه ويطفئه في الزوايا المعتمة مغمورا بسعادة لا توصف. استمر كذلك حتى هبط الليل، فازدادت اللعبة إثارة وتشويقا في الظلام فيما كان والده يوبخه ويحذره من نفاد طاقة البطاريات. رفض علي أن يعطيه لأي من أصحابه الذين توسلوا إليه للعب بنوره في أزقة خلف السدة الحالكة، غير أنه تنازل عنه بسهولة للملا عامر.

قبل دخوله المدرسة كان علي يتعلم قراءة القرآن في الكتّاب، وكان معلمه الملا عامر أعرج يستخدم عصا يتأبطها أثناء النهوض أو المشي، ويتوعد بها الصبيان الثرثارين والمشاكسين. حين شاهد المصباح اليدوي طلب أن يجربه فوافق علي. قلّبه الملا بين يديه بإعجاب كما لو أنه لم ير مصباحا يدويا في حياته، وقال إنه يحتاج إلى واحد مثله في الليل أكثر من أي شخص آخر عندما يريد أن يقضي حاجته، ففي الظلام يتعثر بعصاه وأحيانا يضعها فوق حجر أو في حفرة، كما أن الفانوس، الذي اعتاد أن يحمله معه، كثيرا ما ينطفئ في ليالي المطر أو الرياح القوية. وضع الملا المصباح إلى جانبه بجوار العصا وعاد علي إلى مكانه. في المساء، غادر علي سلمان الكتّاب مع الصبيان من دون أن يسأل الملا عامر عن مصباحه.

بعد أيام قليلة احتاج سلمان اليونس المصباح ليستخدمه في رحلة ليلية لزيارة صديق. فتش البيت كله، بمساعدة مكية الحسن وحليمة، فلم يجده. وعندما عاد علي من الكتّاب قبل الغروب سأله والده عنه فتردد في الإجابة، وتلكأ في قول جملة واضحة، وحاول التملص بمختلف الأعذار. أدرك

الأب ارتباك ابنه وخوفه وخمن أنه فقد المصباح أو كسره و لم يخبر أحدا. استولى عليه غضب جنوني فخلع حزامه الجلدي، عض على شفته، وساط ابنه على مؤخرته. كان للحزام وقع السكين. صرخ علي من شدة الألم: «آخ بويه، آخ». ومع توالي السياط أخذ علي يدافع عن نفسه بيديه وساقيه، ويرجو والده باكيا أن يتوقف عن ضربه: «بس بويه، فدوه أروح لك. بويه فدوه أروح لك». و لم تنفع تدخلات مكية الحسن التي وقفت حاجزا بين زوجها وابنها الذي تعلق بملابسها فطالتها جلدات قاسية بطريق الخطأ فيما الطفل ينهار تحت لسع الضربات الموجعة المتلاحقة. فجأة اندفعت حليمة كالسهم لتنتزع شقيقها من لهيب الجَلْد المتواصل وتهرب به إلى الزاوية وتحميه بجسدها. لم يجرؤ والدها على ملاحقة علي وهو مختبئ خلفها إذ كان يعاملها كامرأة لأنها مخطوبة آنذاك إلى عبد الحسين، لذلك اكتفى بتهديد ابنه بالمزيد من الجلد، عندها اعترف علي بأنه أعطى المصباح إلى الملا عامر. وعلى الفور قاد سلمان اليونس ابنه من يده ومضى به إلى الكتّاب. عاتب الملا عامر الذي قال معتذرا إنه اعتقد أن سلمان اليونس هو الذي أرسل له المصباح كهدية. لم يقتنع سلمان اليونس بحجة الملا، و لم يهدأ غضبه رغم أنه استرد المصباح. تلك الليلة منع سلمان اليونس طعام العشاء عن ابنه الذي كان يتضور جوعا. ألغى زيارته لصديقه، وجلس يراقب مكية الحسن فربما تهرّب لابنها بعض الطعام في الليل. ومنذ ذلك اليوم كفَّ علي عن الذهاب إلى الملا عامر إذ نقله والده إلى الملا عيسى ليواصل تعلمه الكتابة وقراءة القرآن. أخفى سلمان اليونس المصباح في مكان ما من البيت، و لم يتمكن علي من رؤيته بعد ذلك إلا بيد عبد الحسين، زوج أخته حليمة، في الليالي الأولى لانتقالهم إلى مدينة الثورة.

***

نسي علي سلمان إفطاره مكتفيا بفنجان قهوة.

عند الضحى أيقظه من شروده طرق ناعم خجول على باب غرفته. نهض ليفتحه. كانت ساندرا وخلفها مارتن يعلق غيتاره في كتفه. قالا إنهما ذاهبان في رحلة إلى الشواطئ المغربية. تمنيا له إقامة طيبة وطلبا منه أن يحتفظ لهما بالبريد ريثما يعودان. حملا حقيبتيهما وغادرا. خرج إلى الشرفة المطلة على السلم الحديدي وتابع قدمي ساندرا وهما تهبطان الدرجات بتريث متقن. وقبل أن تنعطف في الممر رفعت رأسها إليه، لوّحت بيدها وغابت.

بدت له غرفته رقم ٩ كئيبة بينما لم تكن كذلك عندما شاهدها برفقة الوكيل العقاري من أجل استئجارها قبل أيام. ظل يفكر بذلك وهو في جلسته الثابتة على طرف السرير. وأخيرا انتهى إلى أن الكآبة ليست في الغرفة بل في روحه التي أضنتها العلاقة المضطربة مع زوجته طيلة الأشهر الثلاثة الماضية، لكنه غيّر رأيه، فيما بعد، وعزا تلك الكآبة المضنية إلى جمال الفتيات الآسر المحيط به والذي ليس بمقدوره أن يطاله.

قبل الظهر رن جرس الهاتف العمومي الذي ثبت فوق حامل خشبي يصل إلى منتصف قامة المرء في الجانب الأيمن من غرفة ساندرا. كان الاتصال من زوجته لتطمئن عليه ولتعرف كيف أمضى ليلته الأولى، وعرضت عليه أن يتصل بها، في أي وقت، إذا احتاج إلى شيء. تذكر أنه أعطاها رقم تلفون الشقة ورقم تلفون مالكها يوم تسلم المفتاح. كل الهواتف الضرورية كانت مرفقة مع عقد الإيجار الذي نسي أين وضعه.

-٢-

كانوا في كراج بيروت بمنطقة البرامكة من دمشق، وكان سائق الميكروباص السوري ينتظر راكبا واحدا كي تمتلئ السيارة وينقلهم إلى لبنان. حين رآها السائق تتقدم باتجاهه سألها بصوت ممدود إن كانت تروم الذهاب إلى بيروت. لم تجب. اكتفت بإيماءة من رأسها، واستدارت خلف السيارة. همت برفع حقيبتها لتضعها في الصندوق المفتوح لكن السائق تلقفها منها وهو يقول:

– خلّي عنك، خلّي عنك.

أغلق الصندوق وفتح لها الباب مشيرا إلى مقعد فارغ بجوار علي سلمان، وقال:

– تفضلي.

قبل أن تصعد نظرت إلى داخل السيارة نظرة شاملة. تفرست في الوجوه. حدّقت مليّا في عيني علي سلمان. كان وجهها جميلا وشعرها بنيا غامقا. بدت مترددة خائفة. ولكي يطمئنها تراصف ليفسح لها مكانا أوسع. جلست وجذبت نفسا عميقا وهي تسند رأسها إلى الخلف، ثم اعتدلت عندما ركب مسافرون آخرون. استرخت من جديد، وكادت

تغفو لولا الضوضاء التي أحدثها الركاب بسبب غياب السائق. سألها علي سلمان إن كانت تقصد بيروت أم مدينة أخرى فأجابت:

– بيروت.

وأدارت رأسها ناحية النافذة. ثم سألها عن جنسيتها فقالت ببرود:

– عراقية.

قال إنه عراقي أيضا.

بدت غير مكترثة إذ ظل وجهها محتفظا بهيئة جادة. كانت مرتابة بكل من حولها، لكن إحساسا مفاجئا بالإطمئنان لهذا الشاب الغريب دفعها للسؤال.

– وأنتَ أذاهب إلى بيروت؟

أجاب وهو ينظر في عينيها:

– نعم.

أراد أن يواصل الحديث معها ليبدد حياءها وخوفها فسألها إنْ هي من بغداد أم من محافظة أخرى، قالت بصوت واهن متردد:

– ها، نعم من بغداد.

بعد دقائق شعر أن توتر الفتاة بدأ يخف. أدرك ذلك من دفء فخذها الذي لامس فخذه وكتفها الذي لامس كتفه. عرّفها بنفسه وسألها عن اسمها:

– خولة.

وبعد قليل قالت:

– عندما نصل إلى بيروت هل تستطيع أن تساعدني في البحث عن عنوان يخصني؟

– طبعا، طبعا.

جاء السائق راكضا واعتذر عن تأخره. لحظات وانطلقت السيارة.

لملمت خولة نفسها ولاذت بالصمت.

لأنها محترسة في إجاباتها وفي أسئلتها خمّن علي أنها هاربة من الملاحقة الأمنية في العراق، فثمة الآلاف من المعارضين للنظام الذين اجتازوا الحدود قبلها، عبر المطارات، أو المعابر أو عن طريق التهريب، خوفا من الاعتقال والموت تحت التعذيب أو في أحواض الأسيد خاصة أعضاء الحزب الشيوعي بعد تدهور علاقته السياسية مع حزب البعث العربي الاشتراكي الحاكم العام ١٩٧٨. كان أغلبهم يتوجهون إلى سوريا أو لبنان للإقامة أو للانتقال من هناك إلى دولة أخرى. فإذا كانت خولة من الشيوعيين أو أصدقائهم فعليها ألا تتحدث كثيرا إلى الآخرين كي لا توفر لهم فرصة اكتشاف هويتها. تلك هي التعليمات التي تلقتها قبل الشروع بالرحلة المحفوفة بالخطر. ذلك أن الخوف من المخابرات العراقية، التي أشيع اعتقاد حولها بأنها موجودة في كل مكان من خلال آلاف العملاء، سيظل يلاحقها لسنوات طويلة حتى وهي خارج الحدود.

ذلك اليوم، كلاهما خولة وعلي، شعرا بأنهما قريبان من بعضهما وأنهما يتقاسمان القلق ذاته والحلم ذاته لكن أيا منهما ما كان بإمكانه الإفصاح عما يختلج في نفسه.

عند معبر جديدة يابوس الحدودي مع لبنان جمع السائق جوازات السفر من الركاب ليحصل لهم على إذن بالمرور. وفيما هم ينتظرون أخذوا يتبادلون الأحاديث العامة لكن خولة نأت بنفسها وظلت صامتة ساكنة، فالحديث مع الآخرين هو ما مُنعت منه قبل سفرها. بعد حوالي ربع ساعة رجع السائق ليقرأ الأسماء في جوازات السفر ويعيدها إلى أصحابها. لم يبق في يده أي جواز سفر. سأل وهو يتطلع في وجوه الركاب:

– خولة إبراهيم جميل؟

هكذا سمع علي سلمان اسمها كاملا لأول مرة.

أجابت بارتباك:

– نعم.

– الضابط يريدك.

تسلل إليها ذلك الشعور بالخوف الذي عانت منه في كل المعابر الحدودية التي حاولت اجتيازها إلى سوريا أو الأردن من قبل. نزلت من السيارة. لامست قدماها الأرض فأحست بارتجاف في ركبتيها. فتح السائق الصندوق الخلفي ودعاها كي تأخذ حقيبتها معها قائلا:

– ربما تتأخرين، لا استطيع أن أنتظرك أكثر من ربع ساعة.

ما إن انتهت المهلة التي حددها السائق حتى انطلق بسيارته رغم رجاءات الركاب بإعطائها المزيد من الوقت، وقال إنه يجب عليه أن يعود إلى دمشق قبل الغروب.

-٣-

بعد أيام من إطلاق سراحه قرر علي سلمان مغادرة العراق.

أمضى في المعتقل نحو ثمانية أشهر من دون محاكمة أو تحقيق. وكان اقتيد من الطريق، إثر خروجه من بيت معلم الموسيقى، وألقي في قاعة صغيرة تغص بالمحتجزين الذين يتغيرون باستمرار، فكان عليه أن يقبل مزاج وسلوك الوافدين الجدد وأن يتحمل اعتداءاتهم وإساءاتهم. ذات يوم تسلم ملفَه مسؤولٌ جديد. وعندما راجعه لم يجد فيه ما يستوجب استمرار الاعتقال الذي وصف في طرف أحد التقارير، وبحروف صغيرة جدا، بأنه إجراء وقائي، تأديبي، تحذيري.

أُستدعي علي سلمان لمقابلة المسؤول الجديد في مكتبه. وبعد حديث إرشادي طويل طلب منه توقيع وثيقة تعهد بعدم الانتماء لأي حزب سياسي غير حزب السلطة فوقعها. وفي غضون أيام أفرج عنه.

توجه إلى منزله في مدينة الثورة – داخل مسرورا بحريته وبلقائه المقبل مع أمه مكية الحسن. قبل أن يصل إلى البيت استقبل الناس في الجوار، من خلال الأولاد المنتشرين في الطرقات، نبأ الإفراج عنه بفرح حذر وترحيب خافت مع أن قلوبهم كانت مفعمة بالسرور لرؤيته حيا. كانت كلماتهم مشوبة بالحرص والكتمان فلم يجرؤ أحد على إبلاغه بوفاة أمه إلا أخته

مديحة التي شهقت حين رأته، احتضنته وبكت وأخبرته بتمتمة متقطعة بين الدموع فبكى معها. جاءت النسوة في الجوار للتهنئة بينهن أم هاني، وبشرى زوجة مهدي جابر، وعندما اغرورقت عينا مديحة بالدموع بكين معها لذكرى امرأة لا سبيل إلى نسيانها. بعد أن غادرن وصل علوان عزيز متكئا على عكازه. بدا نشيطا حيويا أكثر من ذي قبل. واحتار بين تهنئة علي بإطلاق سراحه وتعزيته بوفاة والدته، فاختار الصمت، مكتفيا بالقبلات، ثم تبادل مع علي حديثا قصيرا هامسا عن فترة الاعتقال. عصرا جاء سوادي حميد من غير أن يجلب طبله معه فهو يحمله في الأفراح فقط، وإطلاق سراح علي سلمان بالنسبة له مناسبة للفرح لكنها ناقصة مع غياب مكية الحسن. ومع أنه بذل جهدا مضنيا كي يمنع نفسه من البكاء إلا أن لحيته تخضلت بالدموع وهو يعانق علي ويهنئه.

ذلك اليوم ظل علي يستمع إلى أحاديث مديحة عن كل ما وقع أثناء فترة اعتقاله، عن مرض أمه، ووفاتها، ودفنها. وكان يجهش بالبكاء كلما تذكر أنه لن يراها مرة أخرى.

لم يتمكن من النوم في بيت خال من مكية الحسن بعد أن كان ممتلئا بحبها وعطفها وصبرها وكدها وشموخها. إنه يرى صورتها في كل زاوية من البيت الذي تركت فيه أثرا عميقا منذ أن شيدته، وهو لم يزل صغيرا، بعد انتقالهم إلى مدينة الثورة. وفكر: ما الذي بقي له في هذه الحياة؟ لو أن مكية الحسن موجودة لعاش إلى جانبها، من أجلها، من أجل تعبها ومعاناتها، لكنها غادرت مرة وإلى الأبد. الآن لا أحد معه سوى مديحة التي قد تتزوج يوما ما ويظل وحيدا.

أدرك علي سلمان أنه لن يتمتع بالاستقرار طالما هناك ملاحقات

أمنية ومضايقات سياسية تطال جميع الميادين وبشكل خاص الدراسية والوظيفية. وفكر أنه إذا فقد ثمانية شهور من حياته هذه المرة فربما سيفقد حياته كلها في المرة القادمة. من يدري أي تهمة جديدة ستوجه إليه؟ وقد يقضي فترات طويلة من دون أي اتهام أو تحقيق أو محاكمة! كم من المحتجزين والمعتقلين الذين لم يسأل عنهم أحد لسنوات؟ ما رآه داخل المعتقل أكد له رخص الإنسان ووحشيته. وخطرت له فكرة الهجرة كطريق للخلاص بدلا من البقاء والسير على حافة الجحيم. وراح يتأملها حتى بدت له كأنها قدر مفروض على سلالته منذ أن ارتحل أجداده من أريافهم وقراهم وحقولهم وبطائحهم في الجنوب إلى بغداد، ثم إلى مدينة الثورة إحدى ضواحي العاصمة. والآن ها هو أحد أحفاد أولئك المستكشفين الأوائل ينوي القيام بهجرة جديدة، ولكن هذه المرة إلى ما وراء الحدود، إلى المجهول.

صباح اليوم التالي انتبه إلى أن مديحة لم تزل ترتدي ملابس الحداد الصارمة. كانت ملتفة بالسواد من رأسها حتى قدميها، فحاول أن يهوّن عليها الفقدان. قال لها إن عليهما زيارة قبر والدتهما قبل كل شيء، وبعد ذلك تخلع ملابس الحداد، فانتحبت وهمهمت، وسط الدموع، قائلة إنها لا تستطيع تصديق أن مكية الحسن لم تعد موجودة، وتوسلت إليه ألا يتركها وحيدة في هذا العالم.

جاءت أخته حليمة وزوجها عبدالحسين وابنهما سليم، ثم اخته الثانية صبيحة وزوجها يوسف، وجلس الجميع يخيم عليهم جو من الحزن. عبّر علي عن رغبته بزيارة قبر والدته للتأكد من بنائه، ومعرفة موقعه، فأعلن عبد الحسين استعداده لأخذ من يريد بسيارته إلى مقبرة «وادي السلام» في النجف.

قبل تحديد يوم الزيارة ذهب علي إلى بيت زميله السابق في الجامعة عماد إسماعيل. كان متشوقا لسماع أخباره بعد أن أبلغته عائلته بأنه هاجر إلى سوريا ليتخلص من مطاردة المخابرات ومراقبة بيته لأيام بهدف اعتقاله. كما كان متلهفا لمعرفة أخبار نادية شقيقة عماد، ذلك الحب الواعد الذي أيقظ في قلبه الفتي الحماس لتعلم الموسيقى.

نزل من سيارة الأجرة. اجتاز ساحة الأندلس ودخل في الحارة التي بين شارع النضال وشارع السعدون. وقف أمام الدار المنتصبة بين الأشجار. إذن هذا هو المنزل الذي تقيم فيه نادية. تطلع في جدرانه، في أبوابه، في نوافذه. كيف سيقابل نادية؟ بأية لهفة؟ بأي سؤال؟ بأي شوق؟

ضغط على زر الجرس. لم يأت جواب. ترى كيف فسرت غيابَه طوال ثمانية أشهر؟ ربما اعتقدت أنه أهملها، أو أنه نأى بنفسه عنها بعد اعتقالها فهو يعرف أن من يُطلَق سراحُه يظل تحت المراقبة. إنه الآن تحت المراقبة. وبدون وعي منه تلفتَ حوله. ضغط على زر الجرس مرة أخرى وأرهف سمعه عله يلتقط صوتا أو إشارة على وجود حياة. لم يجب أحد. ليس هناك سوى سكون يحيط المنزل الفاره. رأى طالبة تقترب عائدة من المدرسة. سألها فقالت:

– بيت عمو إسماعيل انتقلوا قبل شهر.

– أين؟ – قال بلهفة.

لم تكن تعرف أين. قالت إنها سمعت أهلها يقولون إن «عمو إسماعيل باع البيت».

ظل مسمرا في مكانه حتى اختفت الطالبة خلف سياج حديقة منزلها الأمامية. لو أنها تعرف عنوانهم الجديد، لو أنها تعرف المدينة التي انتقلوا إليها لفتش عن نادية في كل شوارعها ومدارسها وكلياتها، لفتش عنها كل مكان يمكن أن تذهب إليه. استدار يائسا نحو ساحة الأندلس. ومن هناك استقل سيارة أجرة إلى حي البلديات لزيارة أستاذه علاء شاكر.

أمام «بيت الموسيقى» تناهت إليه أصداء أنغام اعتاد على سماعها حين كان يتدرب على آلة العود على يد علاء شاكر. كان اللقاء مع الأستاذ، الذي علمه أسرار الأوتار، مفعما بالمحبة والشوق. استغرق الأمر وقتا حتى أفاق الموسيقي من صدمة المفاجأة. لقد يئس من إمكانية رؤية تلميذه ثانية. لكنه الآن يجلس قبالته ويسأله عن سبب اعتقاله، ويستمع إليه:

– لا أعرف، طوال الفترة الماضية لم يحقق معي أحد، و لم يسأل عني أحد، ولولا مجيء مسؤول جديد لربما بقيت هناك سنوات.

وعلق علاء شاكر ساخرا:

– كانوا مشغولين بآلاف غيرك.

وهما يشربان الشاي سأله علاء شاكر إن كان راغبا في مواصلة دراسة الموسيقى معه، فعبر له علي عن عدم استعداده، وقال إنه يشعر بأن أصابعه متخشبة، وأن عبثية اعتقاله وما عاناه خلال شهوره الثمانية حطمت شيئا في روحه كان يتلألأ كالنجوم. ثم أبلغ أستاذه بنيته الهجرة إلى سوريا فحذره من تلك المغامرة وقال:

– سوف تظل تركض وراء لقمة العيش ياعلي وستفقد موهبتك الموسيقية.

وعندما أدرك إصرار تلميذه على السفر قال علاء شاكر إن له أخا في دمشق اسمه أمين: «ستجده في مقهى الروضة بشارع العابد كل مساء. فقط قل له إنك من طرفي. سأحدثه عنك عندما يتصل بي. إنه يتصل كل يوم خميس تقريبا».

***

في مقهى عجيل المطل على شارع الداخل قابل علي سلمان صديقه علوان عزيز بحذر خوفا من المخبرين أو الأعضاء الجدد في المنظمة الحزبية في المنطقة الذين يحاولون إثبات ولائهم بكتابة تقارير لمسؤوليهم عن أية قضية مهما كانت تافهة، عن أي لقاء بين اثنين من خارج حزبهم، تقارير كيدية أو ملفقة في الغالب. كان علي حريصا على تفادي أي مشكلة طارئة، ذلك أن استدعاءً جديدا أو تحقيقا جديدا سوف يعيق مشروع الهجرة.

في ذلك اللقاء استهجن علوان عزيز فكرة السفر، كما استهجن فكرة التخلي عن الموسيقى تحت أي ذريعة وقال إن «الحياة ينبغي أن تستمر هنا على هذه الأرض الولاّدة المعطاء منذ القدم، هنا ينبغي أن تساهم في بناء وطنك. بصوتك وموسيقاك».

كرر علي سلمان عزمه على الرحيل وقال لصديقه إن نداءً داخليا يدفعه لحمل حقيبته والمضي بعيدا عن البلد الذي حرمه من والدته ومن التعليم والموسيقى والحب. قبل أن يفترقا توسل علوان عزيز إليه ألا يدع

تجربة الاعتقال تحطم آماله وتدمر قدراته الفنية فذلك هو هدف واضعي سياسة القمع والتنكيل.

قال وهو يصافح علي سلمان:

– لا تدعهم ينجحون، لا تسافر، عد إلى غنائك وموسيقاك.

بعد يومين، وفي الصباح الباكر، أقلهم عبد الحسين في سيارته الموريس إلى مقبرة «وادي السلام». لم ينتبه علي سلمان إلى أن السفر في تلك السيارة العتيقة مغامرة خطرة إلا عندما قطعت ربع المسافة وهي تدرج ببطء فيما تجتازها المركبات الواحدة تلو الأخرى دون أن يراها لفرط سرعتها إنما يسمع فقط صوت الرياح التي تندفع بقوة عند مرورها الخاطف. كلهم كانوا مجمعين على أنهم ارتكبوا خطأ كبيرا بالموافقة على السفر بهذه السيارة لكنهم لم يعلنوا ذلك صراحة، خجلا من عبد الحسين، ما عدا مديحة التي قالت متبرمة: «لن نصل سالمين بهذه البرشقة». وكانت في كل مرة يركن عبدالحسين سيارته على جانب الطريق، ويطفئ المحرك، ويرفع غطاءه كي يبرد تتوقع أن الماكينة لن تدور ثانية. أخيرا توقفت السيارة متقطعة الأنفاس عند مدخل المقبرة فنزلوا غير مصدقين أن ذلك الحديد المهترئ لم يتحول إلى أشلاء في الطريق.

واجهتهم عبارة كتبت بخط الرقعة على جدار: «أدخلوها بسلام آمنين».

ارتاع علي سلمان من سعة منظر الموتى المزدحم الممتد بلا حدود. تلك كانت المرة الأولى التي يزور فيها «وادي السلام» حيث القبور

المكتظة في تلك الأرض المنبسطة الرملية الجافة الواقعة على مشارف الصحراء. قبور مسورة كالمنازل، وأخرى دارسة أو حديثة العهد، عالية تنتهي بقباب أو منائر أو ترتفع بهيئة مسلات، قبور تحمل صور أصحابها، وأخرى عُلِّقت بين ثنايا أحجارها أعوادُ بخور موقدة أو منطفئة. وثمة قبور زينت بزهور اصطناعية أو حجزت بقضبان حديدية كالنوافذ.

في الصمت العميق الشامل الذي تسكنه الوحشة الأبدية قطعوا مسافة طويلة قبل أن يهتدوا، بمساعدة دليل، إلى القبر الذي بني حديثا. قرأ علي سلمان على الشاهدة الرخامية:

إن وعد الله حق
المرحومة مكية الحسن
تاريخ الوفاة: ١٩٧٨/٦/٢

دنا من القبر، أحنى رأسه وقبّله، ثم وضع يده عليه كمن يوقظ شخصا من النوم. دعاهم عبد الحسين لقراءة الفاتحة. همهم علي ببضع كلمات لم يسمعها أحد. اعتذر لأمه عن الآلام التي سببها لها. ودّعها، بينه وبين نفسه، فربما لن يتمكن من زيارتها ثانية. تراجع إلى الخلف فتقدمت شقيقاته، اللائي كن يرتدين السواد، ليندبن والدتهن بكلمات مختلطة بالنحيب.

-٤-

تذكر علي سلمان ذلك اليوم الذي أغضب فيه أمه.

مع اقتراب عطلة المدارس الصيفية التقى، في مقهى عجيل، برب عمل معروف في أوساط البنائين يدعى أبو ستار الذي أبلغه بإمكانية العمل معه في محافظة الرمادي بعد انتهاء الامتحانات مباشرة. كان علي يفضل العمل في المحافظات لأنه يتقاضى أجورا أكبر من التي يحصل عليها في بغداد.

ولأن مواقع العمل بعيدة عن مركز المدينة، حيث الفنادق والمطاعم والمقاهي، فإن الشغيلة، الأسطوات والعمال، يقيمون في مواقع العمل ذاتها. ولهذا الغرض كانوا يأخذون أفرشتهم معهم. أما الطعام فقد خصص له أبو ستار شابا من سكان المدينة، اسمه مصعب، يعرف أسواقها ومحالها وأسرع السبل إليها. كان ماهرا في طبخ وجبات غنية ورخيصة وبكميات وافرة. وكان نشيطا، متعاونا، يساعد الآخرين عندما لا يكون لديه ما يشغله.

هيأت مكية الحسن لولدها فراشا جديدا: حشية ومخدة وبطانية، رغم أن الفصل كان صيفا إلا أنها خافت عليه من برد الفجر في المناطق الصحراوية المفتوحة.

في يوم سبت بدأوا العمل في أحياء شيدت حديثا ضمت مدارس ومخافر شرطة ومراكز صحية ودور موظفين. كان العمل يتوسع أسبوعا بعد أسبوع، وتبعا لذلك كانوا يتنقلون من حي إلى آخر. أمضى علي العطلة المدرسية الصيفية كلها هناك، ما عدا زيارات سريعة إلى أهله في بغداد لا تستغرق سوى ساعات مرة كل أسبوعين. وحين انتهت العطلة ترك العمل. أوصله مصعب إلى كراج السيارات.

عاد علي إلى مدينته ليستعد لسنة دراسية جديدة خلال يومين.

كانت حصيلة ذلك الصيف المالية عالية فتوقع أنها ستدخل السرور إلى قلب أمه التي انتظرت ما يجنيه من عمله في مدينة بعيدة طوال أشهر العطلة الثلاثة لتسديد بعض من ديونها، لكنه لم يتوقع أبدا أنه سيغضبها.

عندما اقترب من البيت انتبه إلى أنه لم يجلب فراشه معه. فكر في رد فعل أمه وفي صعوبة العودة وجلب الفراش فهو، فضلا عن ضيق الوقت، لا يعرف أين موقع العمل أصلا إذ أن العمال جميعهم يعتمدون على رب العمل اعتمادا تاما فهو المسؤول عن كل شيء، أما دورهم فيقتصر على تنفيذ ما يطلب منهم كفصيل من الجنود.

استاءت الأم وغضبت من تصرف ابنها حتى أنها لم تلمس النقود التي قدمها لها عن عمل الأسابيع الأخيرة، إنما طلبت منه أن يضعها على البساط، فهذه المرة هي الثالثة التي ينسى فيها فراشا جديدا في وقت كانت تعاني من ضائقة مالية شديدة دفعتها إلى الاستدانة من المرابين الذين كانوا يبتزونها لمعرفتهم بحاجتها الماسة.

اعتذر من أمه وقبّل يدها ورأسها ووعدها بتعويض ما فقده، وبأن

يكون مدبرا ومكافحا مثلها، وأن يساعدها في جوانب كثيرة من الحياة وليس بعمله أثناء العطلة الصيفية فقط. وإذ لامت مكية الحسن نفسها على إيذاء ابنها نسيت حكاية الفراش فيما ظل هو يعاني من وطأة الشعور بالذنب الذي لم يتخلص منه إلا في ذلك اليوم من أواخر تشرين الأول.

عند العصر توقفت سيارة حمل أمام بيت مكية الحسن وهبط منها مصعب فيما صعد السائق لينزل الفراش الذي وُضِع فوق معدات بناء. استقبلهما علي بفرحة غامرة. أبلغه مصعب أن أبو ستار كلفه بإيصال الفراش وقال له: «عندما تصل إلى مقهى عجيل إسأل عن بيت علي سلمان أو مكية الحسن، والكل سوف يدلك». ابتهجت الأم ودعتهما بإخلاص إلى تناول طعام العشاء، إلا أنهما اعتذرا فالسيارة مستأجرة وعليهما العودة، مع سقالة جديدة، إلى الرمادي في المساء نفسه فهم يحتاجونها في عمل اليوم التالي.

***

من الثلاجة الصغيرة أخرج علي سلمان ما تبقى من مواد تصلح لإعداد وجبة. فتح الصنبور عليها. غسلها وترك الماء يجري بين أصابعه فرأى نفسه يسير إلى جانب أمه في ذلك اليوم القائظ عندما أخذته معها لعيادة خالته المريضة. ففي الساعة الثامنة من صباح يوم جمعة أودعت مكية الحسن توأمها صبيحة ومديحة لدى ابنتها الكبرى حليمة. أوصتها بألا تدعهما يلعبان في الخارج، وتوجهت إلى بيت أختها صوب معامل الجرار حيث يعمل زوج أختها منذ أن قدم إلى بغداد وسكن خلف السدة في منطقة الميزرة. كانت مكية الحسن لا تزال بملابس الحداد إثر وفاة زوجها سلمان اليونس قبل شهور. ها هي تسلك الطريق نفسه

الذي كان يسلكه عندما يذهب إلى عمله في معامل الطابوق. أبصرت من بعيد مداخنها العالية البعيدة الخامدة وتذكرت الديك الذي فقدته بعد فترة وجيزة من الوفاة، يومها فتشت عنه في كل البيوت المجاورة والأزقة المتشابكة المحيطة أثناء إقامتها خلف السدة ولكن دون جدوى. كان لصياحه توقيت دقيق كالساعة فهو يطلق صوته نحو الثالثة بعد منتصف الليل فتوقظ زوجها كي يستعد للذهاب إلى العمل. كانت اشترته من سوادي حميد الذي حاول إعداده كديك قتال ليشارك في المعارك التي تقام في مقهى بشارع الشيخ عمر عصر كل يوم جمعة، لكنه اكتشف أنه ديك مسالم فباعه. كانت بحاجة كبيرة لذلك الديك بعد أن اعترض قطّاعُ طرق سلمان اليونس وسلبوه ساعته الأثيرة لديه. إنها ساعة جيب فضية في غلاف جلدي بني اشتراها من سوق الغزل. في الأيام الأولى كان سعيدا بها كالطفل، يسحبها من غلافها، يضغط على النابض بإبهامه فيرتفع الغطاء، يغلقها ويعيدها إلى غلافها منتشيا. يكرر ذلك عدة مرات في اليوم حتى من دون الحاجة إلى معرفة الوقت. وبعد أن تكررت حالات السلب اتفق عدد من العمال على الخروج في مجموعة واحدة مسلحة بالخناجر والسكاكين لمواجهة قطاع الطرق الذين كانوا يكمنون لهم على امتداد هذا الدرب الذي تسير فيه الآن.

انتابها شعور بالتقصير لأنها لم توزع، خلال الفترة الماضية، التمر والخبز والفجل على الجيران طلبا للثواب والترحم على زوجها فتعهدت بفعل ذلك مساء الخميس، الأمر الذي سوف تفعله مرات كثيرة.

بدأت حرارة الطقس تشتد، وقال علي إنه عطشان فتوقفت الأم عند محطة القطار الملاصقة للسكة الحديد. شربا ماء وغسلا وجهيهما من حنفية كبيرة وسط حديقتها الأمامية، ثم واصلا السير بموازاة السكة.

فطنت مكية الحسن إلى أنها لم تزر أختها منذ الأيام التي اندلع فيها حريق خزانات الوقود قرب محطة تعبئة بنزين الكيلاني بعد أيام من ثورة تموز عام ١٩٥٨. وقتها التهمت النيران الأكواخ القريبة من موقع الحريق واندفعت كتل اللهب كأمواج هائلة الارتفاع تكتسح كل ما في طريقها، ثم تسوقها الرياحُ القوية فتصل إلى الأعالي لتسقط حمما على الصرائف وأجساد السكان، فقرر سلمان اليونس، مثل كثيرين، الاختباء في منطقة الميزرة بانتظار انطفاء الحريق. وإذ منعت السلطات الناس من العودة إلى بيوتهم قبل تلاشي النيران تماما اقترحت مكية الحسن أن يقيموا لدى أختها حتى يصبح الطريق إلى المنازل سالكا.

مشيا بمحاذاة السكة الحديد التي دخلت بين بيوت قليلة متباعدة، ثم ظهر الحديد اللامع تحت وهج الشمس في برية قفر ليس فيها سوى الأشواك والعاقول والنباتات المحترقة بحرارة الطقس. وإذ انعطفت السكة يمينا اتجهت مكية الحسن يسارا معتقدة أنه الاتجاه الصحيح. وعندما اختفت السكة عن نظرها أدركت أنها نسيت أين يقع بيت أختها. ورغم ذلك استمرت في سيرها يتبعها ابنها الذي بدأ يشعر بالضيق. وجدت نفسها تهبط في منخفض أرضي جرفت آلات معامل الطابوق أو معامل الجرار ترابه لاستخدامه في صناعة الطابوق والكيزان والأزيار والأواني الفخارية. حاولتْ أن تحدد موقع البيت من خلال أحد معامل الجرار القريبة منها. فربما ذاك المعمل الذي تلوح مدخنته الواطئة المطفأة هو الذي يعمل فيه زوج أختها. فكرت أن تذهب إلى هناك وتسأل عنه لكنها تذكرت أن المعامل معطلة يوم الجمعة.

قالت لولدها:

– لنخرج من المقلع.

تعبت وهي تتسلق المرتفع الذي ينتهي بأرض منبسطة جرداء، ومع ذلك ضاعفت من مشيها يتبعها ابنها متثاقلا من التعب والحر. لم يكن هناك أحد سواهما. كانت تتفرس في كل الاتجاهات فلا ترى أي بيت. طلب علي أن يجلس قليلا فرفضت لأن حرارة الشمس ترتفع كلما تقدم الوقت. قال باكيا إن فمه جف من العطش فلم توله اهتماما فهي تروم الوصول إلى بيت أختها بأسرع وقت خوفا من أن تظل تدور في أرض مترامية ليس فيها سوى السراب في ذلك القيظ القاتل. تأخر علي عنها نحو عشرين مترا فانتظرته وهي تحضه على اللحاق بها. ركض حتى جاورها. ولأنه لا يستطيع أن يدرك خطواتها المتسارعة بقدميه المتعبتين، مسكها من الخلف، وصاحت لاهثة:

– لا تجر عباءتي.

أخيرا لمحت شبح إنسان يمشي فاتجهت نحوه. من بعيد عرفه علي. إنه الرجل الأعمى الذي دلّه على بيت أهله عندما تاه في البراري المحيطة بالمدرسة. كان حذاء الأعمى مهترئا، ودشداشته ممزقة، ورأسه مغطى بيشماغ وسخ برزت من جانبيه خصلات شعثاء، وكان مبللا بالعرق من التجوال اللانهائي، مستعينا بعصاه، في ذلك المناخ اللاهب.

قبل أن تصله مكية الحسن حيّاها. لم تفاجأ به. كانت تعرف عائلته منذ الفيضان الأخير الذي أغرق أكواخ خلف السدة وبات السكان في العراء جنبا إلى جنب كأنهم أسرة واحدة. وهو يعرفها ويعرف زوجها وزوج أختها إذ اشتغل معهما فترة من الزمن في معامل الطابوق والجرار قبل أن يكل بصره فجأة لدرجة العمى. بعدها أخذ يدور في فلك ذلك

المكان، قرب المعامل، أو حول البيوت المجاورة لها، يحصل منها على طعامه وعلى بعض النقود قبل أن ينتقل إلى ضريح سيد جارالله.

بحدسه ومعرفته بخريطة المكان أدرك أنها ضيعت الطريق فقال:

– بيت أختك ظل هناك.

وأشار بعصاه الطويلة إلى الاتجاه الذي ينبغي عليها أن تسلكه، وأضاف:

– مسافة ساعة مشيا.

استغربت من طول الطريق فقال لها إنها تجاوزت مُجمَّع البيوت المحاذي لمعامل الجرار وهي الآن على مشارف خان بني سعد. ظلت واقفة مندهشة، تقبض على يد ابنها، فيما مضى الأعمى في البرية على غير هدى تحت ضوء النهار الساطع الملتهب بحرارة الشمس.

بخطوات متفاوتة مشيا في تلك الفلاة الواسعة تحت سماء زرقاء صافية. لاحظت أن ابنها بدأ يشعر بالاختناق من الأبخرة التي تبعثها الأرض الساخنة فتوقفت. مسحت عرقه بعباءتها ثم مسحت وجهها وجبينها. تركته يرتاح قليلا قبل أن تستأنف المشي في الاتجاه الذي أشار إليه الأعمى.

خمنت أن الطريق استغرق أكثر من ساعة لأنها وصلت إلى بيت أختها منهكة، محمرة الوجه، غارقة بالعرق، فيما كان علي صامتا غير قادر على الكلام.

فور دخولهما البيت شبه ميتين من العطش أغرقتهما الخالة بالماء. لم يكن باردا ومع ذلك تناولا كميات كافية لإرواء قطيع. شرب علي دون توقف، وبلل رأسه وعنقه. غسلت مكية الحسن وجهها وقدميها وجلست إلى جانب أختها التي أعياها المرض خلال الأيام الماضية. قالت بصوت خافت متقطع إنها بدأت تتحسن بعد الأبرة التي حقنها الطبيب في فخذها. أثنت على الطبيب مرارا لأنه أعطاها الأبرة فهي لا تؤمن بدواء فعّال سواها. سأل علي خالته عن ابنها يوسف فقالت إنه ذهب، كعادته، إلى المزبلة. فهو مدمن على البحث في النفايات عن أشياء مهملة تستحوذ على اهتمامه وتطلق خياله. تذكر علي تلك الأشياء التي يجمعها يوسف في غرفة الوقود الطينية والتي أحبها عندما رآها للمرة الأولى: قطار رمادي، سيارة حمراء معطلة، دمية بعيون سقطت رموشها، وأخرى فقدت ساقها، قرد يضرب على طبل، دراجة بخارية يقودها فتى يرتدي خوذة، زرافة مطاطية مثقبة، ونظارات شمسية بدون عدسات. وقف علي في باب غرفة الوقود. كانت خالية ليس فيها سوى أقراص السرجين الجاف الذي يستعمل لسجر التنور أو التدفئة في الشتاء، فعاد إلى الغرفة الأخرى حيث شرعت أمه وخالته بإعداد طعام الغداء. استلقى في مواجهة الباب طلبا للهواء وإن كان يأتي حارا جافا. وسرعان ما غط في نوم عميق، وأخذت أمه تراقبه من حين لآخر وتطرد الذباب عن وجهه.

***

لم يعارض عبدالحسين وحليمة فكرة الهجرة لاعتقادهما بأن علي سيظل موضع مراقبة رجال المخابرات وسيتعرض للمزيد من الاستدعاءات والتحقيقات الأمر الذي ينغص عليه حياته، ويحرمه من

إتمام تعليمه، ويمنعه من تطوير مهاراته الفنية التي عولت أسرته عليها كثيرا لتحسين ظروفها الحياتية. كانت حليمة تقول دائما إن «خيره سيفيض على الجميع، حتى على الأقارب البعيدين». وكان عبد الحسين يرى أن الحياة في الخارج توفر له فرص الحصول على تعليم مثالي. أما رأي مديحة فكان مختلفا فهي ترغب ببقاء أخيها إلى جانبها، فيما يدافع هو عن قراره ويقول لها إنه سيبعث لها مساعدات مالية وسوف يكتب لها الرسائل بانتظام. وبصعوبة تمكن من إقناعها بأن تنتقل للعيش مع شقيقتها حليمة وتعرض بيتها للإيجار ومنه تتكفل بنفقاتها في الفترة الأولى على الأقل. وافقت حليمة على مقترحه فيما قبلت مديحة به على مضض.

قبل اعتقاله بأيام اشترى علي سلمان آلة عود جديدة. كان سعيدا بها، يعاملها برقة خوفا عليها من أي صدمة أو خدش، ويضعها دائما في مكان آمن بهدوء كي لا ترتطم بمادة صلبة. وبعد اعتقاله احتفظت مديحة بتلك الآلة بعيدا عن الأعين كي لا يعبث أحد بمفاتيحها وأوتارها. كان وجود العود في مكان خفي آمن يعني وجود أخيها في البيت، فكانت تخرجه بين وقت وآخر، تمسحه بقطعة قماش رطبة، تضمه وتقبله ثم تعيده إلى عتمته السرّية. ليلة سفره سألها عنه فأخرجته. احتضنه، تطلع فيه من جميع جوانبه وهو يقربه من عينيه، تلمس مفاتيحه ومرر أصابعه على أوتاره دون إثارة نغم. وضعه أمامه برفق كما يضع رضيعا على الأرض. ود لو يجربه. من المؤكد أنه بحاجة إلى دوزان جديد. قاوم تلك الرغبة في أيام الحداد. وفكر ما إذا كان عليه أن يأخذه معه في رحلته المجهولة أم يتركه في البيت؟ ظل يقلب الفكرة مع نفسه حتى بعد منتصف الليل. أخيرا استقر رأيه على تركه مع مديحة طالما أن الموسيقى لم تعد ضمن اهتماماته الأولى في الأشهر المقبلة.

-٥-

قبل شهور من انقطاع العلاقات الدبلوماسية بين العراق وسوريا نزل علي سلمان من سيارة كبيرة لنقل الركاب في ساحة المرجة بدمشق. كان متعبا من السفر الطويل لكنه يشعر باطمئنان لاجتيازه معبر الرطبة الحدودي بسلام وبدون استجواب أو تأخير. من هناك، من المعبر، من تلك النقطة التي يواجه المرء فيها احتمال المنع من السفر في أي وقت، بدأت هجرته. ومع أنه كان مسرورا بوجوده على الأرض السورية، بعيدا عن أعين المخبرين ورجال الأمن المنتشرين في الجامعات والمدارس والمعامل والمقاهي إلا أن روحه شهقت بمرارة عندما أدرك أن بلاده توارت خلف الحدود، وراوده شعور يبعث على القلق بأنه سيواجه حياة صعبة وعرة. ومع التفكير الطويل بما سيلاقيه خيّل إليه أن تلك الخطوات الأولى على طريق المنفى ربما تقوده إلى حتفه. جفل من تلك الفكرة وحاول نسيانها.

أنزل حقيبته من كتفه ووضعها على الرصيف عند طرف الساحة. تطلع حوله. في صباح الجمعة ذاك كانت الساحة شبه خالية، تحت سماء تظلل زرقتَها غيومٌ بيض شفافة تخترقها شمس حميمة. بدأت المحال تفتح أبوابها تباعا. فتش عن مطعم يتناول فيه إفطاره. في الظل هب نسيم ندي منعش. أغمض عينيه وتشممه بقوة محاولا حبسه في

صدره، فهذا هو النسيم الأثير لدى أمه مكية الحسن الذي كانت تسميه «هوى الشام» كلما اشتد الحر في صيف بغداد، خاصة في بيتهم الذي لم يكن فيه سوى مروحة متنقلة.

اشترى فطاير الجبن من فرن منزو. كان جائعا جدا فهو لم يأكل منذ أمس رغم أن عبد الحسين، الذي أوصله بسيارته إلى الكراج، عرض عليه تناول وجبة خفيفة لكنه رفض قائلا إنه يفضل السفر ومعدته خالية فرائحة البنزين ربما تسبب له الدوار والغثيان، وذكّره بأول مرة حاول فيها العمل معه في السيارة الموريس.

ففي إحدى العطلات الصيفية المدرسية اقترح عليه عبد الحسين العمل معه كمساعد لنقل الركاب على خط الباب الشرقي – تل محمد مقابل أجر. في تلك الفترة لم تكن لدى علي سلمان تجربة في البناء إذ كان صغيرا على مثل ذلك العمل الشاق.

في الخامسة صباحا طرق عبد الحسين الباب فاستيقظت مكية الحسن وأيقظت ابنها. ساعدته على ارتداء حذائه وهو مغمض العينين. كادت تبكي عندما رأته نحيلا يكاد يسقط على الأرض من فرط النعاس. أسندته بيديها وجسدها وأخذت تشجعه وتعامله كرجل. في الساعات الأولى عانى من دوار فكان يخرج رأسه من نافذة السيارة لاستنشاق الهواء. وفي إحدى المرات تقيأ فمسح فمه بطرف ردنه. ثم تقيأ بشكل متواصل حتى تقطعت أمعاؤه. أشفق عليه الركاب. وقال أحدهم إن الصبي لا يتحمل رائحة البنزين التي تسبب الغثيان. حاولوا مساعدته. كان منهكا، غير قادر على سحب رأسه إلى داخل السيارة. صفّها عبد الحسين جانبا. استدار ناحية علي الذي كانت رقبته تتدلى

من النافذة، أخرج عبدالحسين من جيب بنطاله خرقة ملوثة بالسخام والزيت ومسح فم علي ورقبته وعاد إلى قيادة السيارة معتقدا أن الحالة طارئة وسوف تزول بعد قليل.

في مقهى الكراج غسل علي وجهه وعرّضه لهواء المبردة. شعر بارتياح لكن الغثيان ظل يهاجمه في نوبات. وعندما تكرر القيء، فيما بعد، أوصله عبد الحسين إلى البيت يائسا من قدرة الفتى على تحمل العمل معه.

جلس علي سلمان في مقهى يطل على جانب من ساحة المرجة. أكل بشهية وطلب شايا. سأل النادل عن مقهى الروضة فأرشده إليها.

كان مقهى الروضة هادئا في الساعات الأولى من النهار، ومع تقدم الوقت امتلأ وغص بدخان السكائر والنارجيلات وضجيج لاعبي الدومينو، فانتقل علي إلى الظل في القسم الخارجي من المقهى بأرضيته الإسمنتية المغسولة للتو. قدم شبان وجلسوا قريبا منه، اتضح من لهجتهم أنهم عراقيون. سأل علي أحدهم إن كان يعرف شخصا اسمه أمين شاكر، فأجاب آخر بسرعة:

– سيأتي بعد قليل. الأخ عراقي؟

– نعم. وصلت الآن.

فقالوا بصوت واحد:

– أهلا بك. الحمد لله على السلامة.

جاء أمين. وضع جريدته على الطاولة قبل أن يجلس. أخبره أحدهم

بأن لديه ضيفا من بغداد وهو يشير إلى علي سلمان. تقدم أمين شاكر منه ورحب به. نقل علي إليه تحيات شقيقه علاء شاكر ففرح أمين وسأل عن أحواله وأحوال العراق. عند منتصف النهار تفرق الجمع فنهض أمين وحمل حقيبة علي سلمان وقاده إلى بيته، ومن محل على الطريق اشترى دجاج بروستد.

بدا له بيت أمين مناسبا لرجل أعزب فهو مكون من غرفة واحدة وصالة في منطقة تدعى مساكن برزة. أثناء تناول طعام الغداء سأل علي سلمان مضيفه عن زميله في الجامعة عماد إسماعيل الذي قيل له إنه غادر إلى سوريا فقال أمين إنه لا يعرف شخصا بهذا الاسم، ربما كانت دمشق محطة له انطلق منها، مثل أغلب المهاجرين، إلى بقاع مختلفة من العالم.

لم ينتظر أمين كثيرا ليخبر علي سلمان بأنه عضو في الحزب الشيوعي العراقي وأنه نجا بأعجوبة من قبضة المخابرات ووصل إلى بيروت قبل أكثر من عام. ولأن المدينة كانت تعيش أواخر فصول الحرب الأهلية لجأ إلى دمشق. ومن خلال منظمة حزبه فيها وجد له أحد رفاقه، ويدعى أبو فيصل، عملا في مؤسسة الإسكان العسكري كمراقب عمال مع أنه مهندس. وأضاف أمين:

– تلك هي الحياة في الخارج ينبغي أن تعمل أي شيء وإلا هلكت الكثير من الناس لا يعملون في اختصاصاتهم.

ذلك اليوم تعهد أمين بأن يبذل كل ما يستطيع لمساعدة علي سلمان، واقترح عليه البقاء معه حتى يجد له عملا فهو يعرف شخصا يدير دارا صغيرة للطباعة وتوزيع الكتب فربما تتوفر فرصة هناك.

أخذه أمين لمقابلة مسؤول الدار الذي كان يفتش عن شخص يجيد

العربية يساعده في مراجعة النصوص وتصحيحها. حين اختبره المسؤول قال إن علي سلمان هو الشخص المثالي الذي يبحث عنه، وطلب منه أن يباشر عمله على الفور. بعد ذلك، وخلال أيام قليلة، وجد له أمين سكنا مشابها لسكنه في المنطقة نفسها.

في البداية عامله مسؤول الدار باحترام، حتى أنه كان يعد القهوة لنفسه ولعلي حين يبدأ العمل في الثامنة صباحا، ولا يرهقه بالمتابعة والإلحاح. كانت بداية موفقة لعلي سلمان فقد كان محظوظا بأمين المتفاني ليس معه فحسب بل مع أي شخص يطلب منه المساعدة. لم يكن يتردد لحظة واحدة عن القيام بما يجعل الحياة أسهل، وبما يجعل الفرح في متناول اليد حتى لو كان لساعات فقط. بدا علي سلمان سعيدا بعمله وسكنه واستطاع أن يرسل، من أول مرتب تقاضاه، مبلغا من المال إلى شقيقته مديحة في بغداد مع مسافرين.

لكن ما أدهشه وتركه في حيرة مربكة لفترة طويلة هو أن مسؤول الدار تغيرت طريقة تعامله معه بعد نحو أربعة أشهر، فأخذ يأمره، ما إن يدخل المبنى، بأن يعد له القهوة. ثم يطلب منه أن يعدها لضيوفه أو لزبائن يبغون طبع مجلة أو توزيع كتاب. كان عليه أن يجلب له ساندويتشات من المطاعم المجاورة، ويمسح الطاولات، ويكنس الأرضية إضافة إلى طباعة النصوص ومراجعتها وتصحيحها. ثم راح يكلفه بنقل صناديق الكتب الثقيلة، التي ترسل إلى الدار لتوزيعها على المكتبات، من الطابق الأرضي إلى الطابق الأول عبر سلم شبه عمودي شاهق. كل ذلك براتب شهري أكثر قليلا من إيجار البيت الذي يسكنه. لكنه كان راضيا بعمله، قانعا بما حصل، معتبرا ذلك خطوة أولى فربما يعثر على عمل بشروط أفضل عندما يتعرف على دور نشر أخرى، لذا لم يتذمر أو يشكو. ومع

أن أمين لم يسأله عن تفاصيل عمله إلا أنه كان يلاحظ الإرهاق الشديد الذي كان يعانيه صديقه عندما يلتقيان مساء كل يوم في مقهى الروضة، فكان يردد دون أن يوجه كلامه إلى علي: «شدة وتزول». كان متفائلا، مؤمنا بالمستقبل، وذلك هو نهجه على الدوام.

مرة جاء إلى بيت علي سلمان لتناول طعام الغداء فأبلغه بأن مؤتمرا تأسيسيا لشخصيات ديمقراطية معارضة للنظام العراقي سينعقد في بيروت لمناقشة وضع البلد بعد إعلان الحرب بين بغداد وطهران وانقطاع العلاقات الدبلوماسية مع دمشق. وأوضح أن المؤتمر ستحضره شخصيات عراقية من كل البلدان، وطرح على علي سلمان فكرة ترشيحه للمشاركة من أجل تأكيد فرص الشباب في الحياة السياسية المقبلة. وافق علي بدون تردد الأمر الذي أدهش المقربين منه، خاصة رفاق المقهى، فهم يعرفون أنه ليست لديه اهتمامات سياسية مباشرة.

***

فوجئ علي سلمان بالعدد القليل لممثلي المعارضة العراقية في أول مؤتمر عام مخصص لتشكيل تحالفات وبحث الواقع السياسي في البلد والآثار التي ستتركها عليه الحرب مع إيران. في أحد أروقة المؤتمر سأل عن سبب ضعف التمثيل فلم يجبه أحد إجابة وافية، كأنهم لا يريدون أن يعترفوا لأنفسهم بوجود ارتباك في عمل التنظيمات السياسية، واختلافات كبيرة في المواقف من الحرب والنظام. وقد بدا له أن المهم، بالنسبة للمنظمين، هو عقد المؤتمر كنوع من إثبات الوجود، ومحاولة لكسب أصوات دول ومنظمات وأحزاب عربية إلى جانب المعارضة العراقية.

عقد المؤتمر في حي الفاكهاني برعاية أحد فصائل المقاومة الفلسطينية

واستغرق يومين لكل يوم جلستان صباحية ومسائية. حضر علي سلمان كل جلسات المؤتمر من دون أن تترك لديه شعورا بالتفاؤل بقدرة القوى السياسية على صنع قرار فعال، وتبني مشروع وطني ينقذ البلاد من الحرب ومن سياسات النظام التي وصفت بأنها تفتقر إلى الحكمة والتوازن.

أمضى اليوم الثالث في اكتشاف المدينة رغم التحذير الذي أطلقه فصيل فلسطيني في الساعات الأولى لانعقاد المؤتمر من أن المخابرات العراقية تنوي اختطاف أو اغتيال كل من تستطيع الوصول إليه من المشاركين في المؤتمر. وأعطيت توصيات بتوخي اليقظة وعدم التجول كثيرا في شوارع المدينة أو الذهاب إلى الشطر الشرقي منها إنما يجب الاكتفاء بمشاوير سريعة فقط في شطرها الغربي الذي يقع تحت سيطرة القوى الفلسطينية والقوى الوطنية اللبنانية. كان تقسيم بيروت إلى شرقية وغربية أحد أبرز معالم الحرب الأهلية التي ظل شبحها المخيف يخيّم على المدينة لسنوات بالإضافة إلى شواهد أخرى كالبنايات المجوفة من أثر القذائف، والجدران المثقبة بالرصاص، وصور الضحايا المعلقة في كل مكان. وحذره مندوب حزب يساري من البقاء طويلا في مقاهي المدينة خاصة وأنه حديث الوصول إليها ولا يعرف شوارعها وطرقاتها الفرعية والأماكن الخطرة فيها. لم يكترث علي سلمان لتلك التحذيرات فطاف المدينة صباح مساء. كان محترسا، ليس خوفا من احتمال اغتياله أو خطفه، بل من الضياع في دروبها المزدحمة وحاراتها التي تسيطر عليها وتديرها قوى سياسية مختلفة النزعات والأهواء. وقد اضطر مرات كثيرة إلى سؤال نقاط الحراسة أو المارة أو أصحاب الدكاكين عن المسار الصحيح إلى الجهة التي يقصدها.

أذهله موقع المدينة من الجبل إلى البحر. كانت مياه المتوسط زرقاء عميقة تجوبها سفن بيض تمضي منسابة هادئة نحو جهات مجهولة. خلع

حذاءه ومشى حافيا على الرمل الأصفر الندي ثم تلمسه بيده وترك حباته تتسرب بنعومة من بين أصابعه فتميل مع النسيم قبل أن تصل إلى الأرض. كان تراب المدينة نحاسيا أحمر وجدرانها الحجرية مخضرة معشبة تنبثق منها زهور صغيرة. وكانت الشوارع القصيرة مزدحمة بالمارة، وبالمحال التجارية المزدهرة بالبضائع الأجنبية، والمكتبات الكثيرة الغنية بما تنتجه دور النشر، وقاعات السينما التي تعرض أفلاما متنوعة. فكر بخولة: لو أنها معه لشاهدا فيلم مارلون براندو وماريا شنايدر «التانغو الأخير في باريس»، كما يشير الملصق على واجهة سينما الكومودور، ولجلس معها في مقهى زجاجي مطل على البحر، أو فوق مصطبة قريبة من صخرة الروشة. قبل نحو يومين كانت تجلس بجانبه أنيسة دافئة. كم تمنى أن تدوم تلك الرفقة المفاجئة. ما الذي حل بخولة؟ لماذا استدعاها ضابط الجوازات؟ وماذا بعد الاستدعاء هل سمح لها بالمرور إلى لبنان أم أعادها إلى دمشق؟

كان قد سمع حكايات كثيرة مشابهة لحكاية خولة فثمة إجراءات تمارسها السلطات الرسمية السورية تتجدد باستمرار وتتغير مع تغير الظروف الأمنية.

وهو يقترب من جسر الكولا هز المدينة دوي انفجار فيما اخترقت طائرات على ارتفاع شاهق حاجز الصوت من دون أن يعيرها المارة اهتماما سوى أن رؤوسهم استدارت مع اتجاه الهدير الذي تلاشى في الفضاء. لاحظ أحد المسلحين عند حاجز تفتيش دهشة علي سلمان فقال بلامبالاة: «غارة إسرائيلية حد الملعب البلدي».

***

بعد عودته من بيروت واجه علي سلمان مفاجأة قاسية.

ما إن دخل مبنى دار الطباعة حتى استقبله المسؤول متجهما وقال له إنه شخص غير نافع لمؤسسته فقد تغيب ثلاثة أيام ومرض في الأسبوع الماضي. وراح يعدد أخطاء علي وهفواته، وأمره بالانصراف قائلا بحزم:

- يعطيك العافية.

أراد علي أن يدافع عن نفسه، أن يطرح مبرراته، وأن يذكّر المسؤول بأنه أبلغه قبل سفره بأسبوع أنه سيغيب ثلاثة أيام، لكنه رفض أن يسمعه. كان قراره بصرفه من العمل قاطعا.

بصمت اتجه نحو الباب الخارجي، وقبل أن يجتازه التفت إلى الغرفة، التي اعتاد العمل فيها، فرأى شخصا آخر يجلس مكانه خلف الآلة الطابعة.

مع أنه شعر بالارتياح لخلاصه من ذلك العمل المضني ولتحرره من عبوديته ذهب إلى مقهى الروضة مخذولا. أمضى النهار كله هناك يفكر بكيفية إيجاد عمل بديل، مهما كان نوعه، يمكّنه من دفع إيجار البيت.

استقبل أمين ما حصل لعلي بنوع من الصدمة، وفكر بأن يذهب إلى مسؤول الدار ويسأله عن السبب الحقيقي إذ بدت له أسبابه غير مبررة وقراره مباغتا، لكنه عدل عن ذلك وقرر قطع علاقته به نهائيا. وكعقاب له صمم على أن يسعى لدى منظمة الحزب كي تسحب إحدى مطبوعاتها منه.

قال أمين بثقة:

– بسيطة علاّوي ولا يهمك.

– والإيجار؟

– ليس مشكلة، أنا أسلفك إلى أن تجد عملا آخر. كيف كان مؤتمر بيروت؟

– القوا كلمات وتفرقوا.

– بس؟

– كانت هناك خلافات عميقة في المواقف من الحرب ومن الحوار مع النظام، في النهاية لم يتفقوا على شيء. ألم تطلع على البيان الختامي؟

– نعم. ليس فيه جديد.

وبعد لحظة صمت أخبر علي صديقه بصوت منكسر بأنه التقى بفتاة عراقية أثناء سفره إلى بيروت لكنها أُنزلت من السيارة في معبر «جديدة يابوس» لمقابلة ضابط الجوازات، ولا يدري ماذا حل بها؟

واستعاد علي، في نفسه، نبرات صوتها، وكلماتها القليلة الحازمة، ونظراتها القلقة المرتابة. وقال إنه حزين لفقدها.

رد أمين:

– ربما لا تزال موجودة هنا في دمشق.

وقال علي:

– وربما سمحوا لها بالمغادرة إلى بيروت. لا أحد يعرف.

قال أمين وهو يتأهب للخروج من المقهى:

– المهمة الأولى الآن البحث عن عمل.

وقال علي في نفسه: «المهمة الأولى الآن البحث عن خولة».

-٦-

تلظى علي سلمان في وحدته وقتا طويلا، ثم نهض كئيبا ضجرا ليعد فنجان قهوة. فكر أن عليه الذهاب إلى المحال لشراء ما يلزمه من المواد الأساسية. وهو يحرك الملعقة في الركوة راح يدندن بصوت منخفض. عزف لحنا بلسانه، ثم حاول أن يغني. أراد أن يطلق صوته الذي بهر به المئات ممن استمعوا إليه فوجده مختنقا محبوسا. كان يحلم بأن يكون مغنيا وموسيقيا محترفا، وهو يمتلك المؤهلات الفعلية لذلك، لكن اعتقاله المفاجئ أعاق كل خططه وطموحاته.

مضت أسابيع على بطالة علي سلمان فشلت خلالها جهود أمين بالحصول على عمل له. كان يبحث عن أي عمل لصديقه حتى أنه لم يستشره بنوعية الأشغال التي يفضلها على غيرها، المهم لديه هو عمل يدر مبلغا من المال يمكّن علي من دفع بدل الإيجار ويخلّصه من الإحباط واليأس.

جلسا يبحثان فرص العمل المحتملة فلم يفلحا بترشيح واحدة كي يجتهدا للوصول إليها. سأله أمين بنبرة استغراب:

– لماذا لا تغني في المطاعم؟

– من أخبرك بأني أستطيع أن أغني؟

– أستاذك علاء شاكر. خابرته الخميس الماضي فقال خامة صوتك نادرة.

– بصراحة لم يعد لدي حماس.

قال أمين على الفور:

– لا يحتاج الأمر إلى حماس، إنه عمل تعيش منه.

– لا استطيع أن أغني، شيء ما جف في روحي.

– وإلى متى ستظل عاطلا ولديك موهبة يمكنك أن تكسب منها ذهبا؟

– لا أدري.

تقابلا بعد أيام وأبلغه أمين بأن من الممكن إيجاد عمل له في مؤسسة الإسكان العسكري. وشرح له أن هذه الشركة مؤسسة مختصة بتنفيذ مشاريع السكن، والطرق، وإنتاج مواد البناء كالحجر والإسمنت والسيراميك والبلاط. وهي ليست حكرا على جهة سياسية معينة إنما توظف الجميع بلا استثناء. أعلن علي سلمان موافقته بفرح ظاهر معتقدا أنه لن يواجه مصاعب فهو معتاد على العمل في البناء منذ صباه.

وهو ينهض مودعا قال أمين إنه سوف يتصل برفيقه أبو فيصل الموظف في الإسكان العسكري لبحث الفكرة معه.

***

في منزله وهو يصب الشاي لضيفيه، أمين شاكر وعلي سلمان، عبّر أبو فيصل عن أساه وحزنه على بلاد تدفع أبناءها دفعا، وبلا رحمة، إلى المنافي. تعاطف مع علي وأبدى لطفا كبيرا وأمنيات مخلصة، وقال إنه سوف يسعى جاهدا لتدبير عمل له في قسم من أقسام مؤسسة الإسكان العسكري، فهو على صلة طيبة مع شخص من الحزب الشيوعي السوري يعمل هناك ولن يتردد في تكليفه.

بعد أسبوع أبلغه أبو فيصل بالموافقة على تشغيله في معمل قص الحجر التابع للمؤسسة، ووصف له طريق الوصول.

في الساعة السادسة صباحا وصل علي سلمان إلى ساحة العباسيين. كان هناك عمال جاءوا قبله. سأل أحدَهم إنْ كانوا ينتظرون الشاحنة التي ستقلهم إلى مؤسسة الإسكان العسكري فرّد بالإيجاب. أدرك الآخرون أنه انضم إليهم فسألوه عن القسم الذي سيعمل فيه. وعندما قال: «معمل قص الحجر» جمدت وجوههم، وتبادلوا نظرات قلقة كأنهم يذّكرون بعضهم بتجربة قاسية خاضوها معا يوما ما، واستداروا يحدقون في الجهة التي ستأتي منها الشاحنة حريصين على أن لا تكشف ملامحُهم ما يفكرون به. استغرب علي سلمان من رد فعلهم، تجاهله وانسحب صامتا إلى الخلف.

وصلت الشاحنة وتهيأ العمال. وقبل أن تتوقف تماما تقافزوا إليها كالقطط متسابقين للحصول على مكان في المقعد الدائري الواطئ. انحشر علي بين أولئك الذين لم يتمكنوا من حجز مقعد فوقفوا متشبثين بسقف الشاحنة فيما جلس الآخرون متراصين على أرضيتها.

في الإدارة ثبتوا اسمه في السجل، وأرسلوه إلى معمل قص الحجر.

هناك وجد أمين في قاعة هائلة الحجم وهو يدون أسماء العمال الذين سيشتغلون ذلك اليوم فهم يتقاضون أجورهم مياومة. أضاف اسم علي سلمان إليهم. أخذه إلى نهاية القاعة وقدمه إلى المسؤول عنه وتركه معه. حدد له المسؤول طبيعة عمله وهي أن ينقل الحجر المرمري في عربة من مستودع مفتوح على الفضاء الواسع، خارج المبنى، إلى قسم الآلات حيث يقطع بأحجام متنوعة حسب طلب الإدارة اليومي.

تسلّمَ عربة النقل.

حين رفع القطعة الحجرية الأولى إلى العربة وحاول دفعها أدرك أن مهمته لن تكون سهلة أبدا. ومع ذلك عقد العزم على أن يذلل الصعوبات التي ستواجهه، وقال في نفسه: «لا يوجد عمل مريح». لكن عضلاته بدأت تخدر تحت ثقل الكتل الحجرية المتعددة الأحجام والأشكال التي تملأ مساحة واسعة وبكميات متكدسة فتحجب رؤية ما خلفها ما عدا أشباح السيارات القلّابة التي تجلب المزيد من الأحجار المرمرية.

عند انتصاف النهار بدأ جسده يذوي، وسط أكوام الحجر، من حرارة الطقس والتعب والعرق والغبار. كان يستعذب العودة السريعة إلى الآلات حيث مسارب مائية تهبط من الأعلى لتعين الشفرات المستديرة على عملها البطيء في قطع صفائح الحجر الضخمة فتنشر رذاذا باردا منعشا. مرة رآه مسؤول العمال واقفا يتطلع في الآلات ويصغي إلى أزيزها فوبّخه وأمره، بحركة من رأسه، بالذهاب إلى مستودع الحجر في الفناء الذي يعكس وهج الشمس اللاهب.

راح علي سلمان يعد الدقائق وهي تمضي ببطء شديد. وحين

أصبحت الساعة الثانية ظهرا لم يعد يرى بسبب السطوع الشديد الذي يعمي عينيه. كاد يبكي من الإرهاق. شاهده أمين، في إحدى جولاته، وقال له:

– شد حيلك علي حتى يثبتوك.

بينه وبين نفسه سخر من تلك الملاحظة. أي عمل هذا الذي عليه أن يتفانى من أجله كي يثبتوه فيه؟ كان يشعر أنه في مأزق، ويلوم نفسه: كيف قبلت؟ أراد أن يصرخ أمام الجميع: كيف قبلت؟ لكنه برر قول أمين بالحرص عليه. فهو يريده أن يقنع المسؤولين بأنه شاب نشيط قادر على تحمل العمل الصعب، وحين يتحقق ذلك قد يستطيع أن يؤمّن له عملا في قسم آخر من أقسام المؤسسة.

انتهى يومه الأول. سار بخطى ثقيلة مع العمال إلى الشارع العام حيث ستأتي الشاحنة التي تعيدهم إلى ساحة العباسيين. كان خائر القوى، يجر أقدامه بصعوبة ويعاني من فقدان السيطرة على جسده وتفكيره. لقد ظل طوال الطريق يحلم بالوصول إلى البيت كي يجلس على الأرض ويدعك قدميه وفخذيه. لكنه ما إن وصل حتى نام على الفور من دون عشاء أو استحمام. كان جسده يئن، وخدر مؤلم يدب في ساقيه.

بعد أسبوع تورمت قدماه فذهب إلى بيت أبو فيصل. وصله بصعوبة. وبتوتر صامت خلع جوربه وكشف له عن قدمه. زم أبو فيصل شفته وحاول حبس دموع تجمعت في عينيه. قال متنهدا:

– تهون يا رفيق تهون. يلعن الساعة التي غادرنا فيها وطننا.

وعندما أبلغه علي سلمان برغبته بترك العمل طلب منه التريث عله يستطيع أن ينقله إلى الإدارة. صافحه عند الباب وهو يكرر أن عليه أن يصبر بعض الوقت. ظل أبو فيصل واقفا أمام بيته يتابع علي سلمان وهو يجر قدميه على الأرض حتى وصل إلى موقف الباص.

تحدث علي إلى أمين، وكما فعل أبو فيصل طلب منه التريث. وتساءل علي في نفسه عن معنى التريث وهو لا يستطيع المشي أو الوقوف؟ حاول أمين أن يشجعه على الاستمرار على أمل أن يترك مكانه لعلي كمراقب للعمال عندما ينسحب هو. لكن أمين لا يعرف متى ينسحب بالضبط. كانت المنظمة الحزبية طلبت منه أن يكون مستعدا لتنفيذ مهمات ربما خارج سوريا لكنها لم تعد إلى الحديث عن ذلك مرة ثانية. رفض علي مقترح أمين وذهب إلى الإدارة وأنهى عمله.

***

مضت أسابيع دون أن يغادر علي سلمان البيت بعد أن ازدادت حالته سوءا للحد الذي لا يستطيع لمس قدميه من الورم والقروح والنزف البطيء. كان أمين يزوره، كلما توفر له الوقت بعد الدوام، يجلب له احتياجاته من السوق، وأحيانا يعد له وجبة طعام تكفيه ليومين، وعندما تنفد يطبخ لنفسه أكلة بسيطة سريعة وهو جالس، ثم ينهض متكئا على الحائط حتى يصل إلى الطباخ لإكمالها.

زاره أبو فيصل واعتذر لأنه لم يتمكن من نقله إلى الإدارة، وقال إنه سوف يواصل جهده من أجل البحث عن عمل له في أي مكان يستطيع الوصول إليه.

وفي ضحى أحد الأيام سمع طرقا عنيفا على الباب لم يدع له مجالا للتفكير بقدميه اللتين لم تندمل قروحهما بعد. فتح الباب بسرعة فاندفع شاب متجهم داخل البيت دون إذن قائلا إنه من المخابرات.

شعر علي سلمان بالذعر لأن مجيء عنصر من المخابرات يعني أن هناك مشكلة قد يتبعها الاستدعاء للتحقيق في إحدى الدوائر الأمنية في ظروف مهينة قاسية، ولا يستطيع أحد التكهن كم سيطول التحقيق وماذا يترتب عليه. سأل علي سلمان: ما الأمر، فلم يجب الشاب إنما فتح دفترا، وسحب قلما من جيب قميصه. كان وجهه صارما خاليا من أي تعبير. سأل وهو يتأهب لكتابة أجوبة علي سلمان:

– لماذا تركت الإسكان العسكري؟

أجاب علي:

– العمل صعب، لم استطع تحمله.

أراد أن يريه قدميه، لكنه أوقفه بإشارة من رأسه الحليق.

– لماذا اخترت العمل هناك؟

– لم أختره. كان فرصة لم أحصل على غيرها.

– هل كنت منتميا لحزب البعث في العراق؟

– لا.

– هل كنت منتميا للحزب الشيوعي؟

– لا.

– هل لك علاقة بأي حزب كردي؟

– لا.

– والأحزاب الدينية؟

– ليس لي علاقة بأي حزب

– الآن في دمشق هل لديك صلة بأي حزب سياسي عراقي؟

– لا.

– لماذا خرجت من العراق؟

– بسبب الاضطهاد.

– هل اعتقلت؟

– نعم.

– لماذا؟

– لا أعرف.

– وهل طلبوا منك أن تتعاون معهم أثناء اعتقالك؟

– لا.

– ماهو عملك في بغداد؟

– طالب في الجامعة.

– لماذا لم تعمل في دوائر الدولة السورية؟

تردد علي في الجواب محاولا أن يختار الكلمات بدقة:

– يشترط على غير السوري الحصول على بطاقة عمل من المخابرات.

– ألم تحصل عليها؟

– لا.

– لماذا؟

– لا أدري، ليس الأمر بهذه السهولة.

أغلق رجل الأمن دفتره. أعاد قلمه إلى جيبه، وخرج.

انتظر علي سلمان مجيء أمين ليخبره بما حدث فقد كان خائفا من تداعيات ذلك التحقيق السريع المباغت. مساء اليوم نفسه طمأنه أمين، وقال إنه سوف يبلّغ منظمة الحزب الشيوعي العراقي بذلك فهي لديها قنوات اتصال رسمية مع السلطات السورية.

-٧-

كان صباحا مشمسا.

هبط علي سلمان الدرجات الحديدية اللامعة المبللة بمطر الليل مستندا إلى الدرابزون. مشى وسط السكون الذي يظلل المبنى والأشجار المجاورة. توجه نحو أحد المحال القريبة. مرت بجواره فتيات جميلات، لم يلتفتن إليه، ولم يعرنه أي اهتمام. اشترى قهوة وخبزا وجبنا وخضارا وقطعتي دجاج، وورق رسائل ومظاريف. عاد إلى غرفته يلازمه الشعور بالاغتراب المؤلم من ذلك الجمال الأنثوي الذي يسلب اللب.

نظر إلى الغرفة رقم ٧ حيث تقيم ساندرا وصديقها مارتن. أصغى جيدا عله يلتقط ما يوحي بعودتهما، فربما جاءا ليلا ودخلا الشقة على أطراف أصابعهما. حبس أنفاسه وأرهف سمعه. ليست هناك أية علامة على مجيئهما. دخل إلى غرفته، وأغلق الباب.

جلس صامتا يحدق في الجدران.

لا يدري كم مضى من الوقت على جلسته الخاملة المنطفئة تلك عندما سمع طرقا خفيفا على النافذة كرذاذ المطر. أزاح الستارة فانتشر

ضوء النهار وكشف جدران الغرفة البيضاء. كانت خولة هناك. فتح لها الباب متراجعا إلى الوراء كي يكتفي بالتحية من بعيد، دون عناق أو تقبيل. جلست على الكرسي وقالت:

– جلبت لك شرشفا للسرير، ووجوها للوسائد.

أزاحت الشرشف القديم، رمته على طاولة صغيرة إلى يمينها، ووضعت الجديد محله. وكذلك فعلت مع الوسائد.

كانت هيئتها واجمة، ووجهها كئيبا. فتحت حقيبتها اليدوية والتقطت مبلغا من المال وقالت:

– هذه حصتك من حسابنا المشترك. الآن عليك أن تقدم طلبا جديدا خاصا بك كي تحصل على المساعدة المالية وبدل السكن مباشرة. خذ معك عقد الإيجار ورسالة دائرة الهجرة، ورقم التأمين الوطني، وأبلغهم بالانفصال، ثم وصفت له موقع المجلس البلدي والباص الذي يأخذه إلى هناك. وقبل أن تغادر قالت إنها غيرّت رقم تلفونها، فكتبت الرقم الجديد على قصاصة ورق، ولصقتها على سطح الطاولة الصغيرة.

لم يكن راغبا برؤيتها، ودّ لو أنها تغادر، لذلك لم يبادر بالحديث معها ويسألها عن أحوالها. ولأول مرة منذ تركه منزلَها في منطقة ويمبلي أحس أن قرارها بالانفصال كان لصالحه مهما كانت أسبابه. إنه نوع من الخلاص، نوع من مواجهة الحياة بدون مساعدة من أحد. ورأى أن استمرار أي علاقة مضطربة ينطوي على أسلوب عدمي للعيش دون أي إحساس بالمتعة أو السعادة. سمع وقع أقدامها تبتعد على الدرجات الحديدية فغمره سكون الغرفة وتذكر وجه ساندرا المليء بالحيوية والفتنة.

كتب رسالتين واحدة إلى مهند وأخرى إلى رعد وزوجته سعاد عبر فيهما عن شكره لرعايتهم له واهتمامهم به. وبدون تفاصيل كثيرة أشار إلى أنه انفصل عن خولة وأنه يعيش وحده الآن في غرفة وثبت عنوانه ورقم تلفون الشقة المشتركة. وضع الرسالتين في مظروفين كتب عليهما عنوان مهند في دمشق مع إشارة إلى أن إحدى الرسالتين ينبغي أن تصل إلى رعد أو سعاد. انتبه إلى أنه لم يبعث برسالة إلى أخته مديحة في بغداد منذ فترة طويلة فكتب لها مستخدما عنوان سليم عبد الحسين ابن أخته حليمة دونما خوف كبير من أن تتمكن المخابرات العراقية من معرفة بلد إقامته فقد سمع أن السلطات في تلك الفترة بدأت تخفف من قبضتها الأمنية الصارمة وسط استياء الناس من أجواء الحرب وانصرافهم إلى ما يؤمّن احتياجاتهم المعيشية اليومية. نزل الدرجات بهدوء وألقى الرسائل في صندوق البريد على رصيف الشارع الرئيسي تحت البناية.

في اليوم التالي ركب الحافلة التي تقله إلى مبنى المجلس البلدي. قدم طلبا جديدا. أعطاه الموظف المسؤول حزمة أوراق لتعبئتها بالمعلومات المطلوبة. أخذها معه إلى الغرفة. ملأها ووقعها وأعادها عبر البريد. وخلال أيام وصلته رسالة تخبره بأنه سوف يتسلم قريبا دفتر شيكات خاصا به كمساعدة من الأمن الاجتماعي باعتباره طالبَ لجوء عاطلا عن العمل.

***

عصر كل يوم يذهب إلى مقهى الروضة. ومع أن كثيرا من الذين تعرف إليهم يأتون إلى هناك إلا أنه كان ينتظر مجيء أمين بعد نهاية عمله. لقد أصبحا صديقين حميمين، غالبا ما يقضيان نهار الجمعة معا.

وطوال فترة بطالته، التي استمرت شهورا بعد تركه العمل في مؤسسة الإسكان العسكري، كان أمين يساعده ماليا ويشد من أزره ويمده بالأمل. ولكي يذلل علي سلمان بعضا من العسر المالي استأجر غرفة واحدة تطل على شارع رئيسي في حي مساكن برزة، مطبخها داخلها أما مرافقها الصحية ففي الخارج تقابل فسحة مربعة مكشوفة.

مساءً زاره أمين وقال إنه يرتب لحفلة في بيته ليلة الجمعة لمناسبة عيد ميلاده الثاني والثلاثين على أن تكون آخر حفلة عيد ميلاد له في حياته. وأضاف أنه لم يكن راغبا بإقامة هذه الحفلة فهو يخجل من ذلك، إنما استجابة لرغبة فتاة سورية، بينهما علاقة حب لا تزال في بدايتها، أصرت على الاحتفال بتلك المناسبة. أضاف أمين: «لهذا يجب أن تأتي، لن أقبل أي عذر منك». هنأه علي وتمنى له السعادة والعمر المديد. وهنأ نفسه بصداقته، فهو الشخص الذي قدم له كل الخدمات دون ثمن.

ذلك المساء روى له أمين حكاية الفتاة التي تأتيه في أحلامه كل يوم لمدة أسبوع ثم تنقطع لعدة أشهر. قال:

«ذهبت مرة إلى كلية الآداب لزيارة صديق لي فوجدته في النادي بين مجموعة من الطلاب والطالبات. قدمني لهم. كانت بينهم طالبة تدعى سناء، تحدثت معها عن الجامعة وهموم طلبة كلية الهندسة التي كنت أدرسُ فيها، ثم عن المرأة وكفاحها في سبيل التحرر الاقتصادي والاجتماعي. لاحظ صديقي انشغالنا عن الآخرين فقال مازحا:

– أمين لا تسرق زميلتنا سناء.

لكني سرقتها.

تقابلنا كثيرا حتى أصبحت لقاءاتنا يومية، كل مساء قرب الأقسام الداخلية لطلبة كلية الآداب في الباب المعظم التي كانت تقيم فيها أثناء فترة الدراسة. كنا ننظم، برفقة أصدقائنا، رحلات إلى «المدائن» والتجوال في البرية الواسعة. إني أتذكر عازف الرباب الجوّال الذي كان يجوب تلك المفازة ليفاجئ العشاق، المنهمكين باختلاس قبلات سريعة، بموسيقاه الحزينة التي يعزفها على وتر واحد.

في العطلة الصيفية التي تتوقف فيها الدراسة ثلاثة أشهر يعود طلبة الأقسام الداخلية إلى منازلهم في المحافظات المختلفة. قبل بدء إحدى العطلات اتفقنا، أنا وسناء، على اللقاء في مدينتها، فثلاثة أشهر فترة طويلة لعاشقين اعتادا على بعضهما كل يوم. حددت سناء يوم التاسع من محرم موعدا للقائنا كي تختفي في الزحام ولا يتعرف عليها أحد من أسرتها أو أقاربها أو جيرانها لأن لقاءً بين فتاة ورجل غريب أمر مثير للريبة والطعن كما تعرف. وعينت لي الفندق الذي ينبغي أن أنزل فيه. وأوصتني بأن اختار غرفة في الطابق الأول أو الثاني تطل شرفتها على الشارع العام الذي تجتازه المواكب كي تراني فأنزل لمقابلتها».

نهض علي ليعد الشاي فيما استمر أمين في حديثه:

«وصلت إلى المدينة عصرا. وبصعوبة عثرت على الفندق. كانت الشوارع تغص بالمارة من أهل المدينة وزوارها فلا يمكنك السير دون أن ترتطم بأحد. لم أجد غرفة شاغرة. أدرك الموظف حيرتي فعرض علي شرفة تطل على شارع المواكب قائلا:

– لن تحتاج إلى غرفة، لأنك لن تتمكن من النوم هذه الليلة.

قادني إلى شرفة ضيقة في الطابق الأول عبر ممر خاص لا يتصل بالغرف أو الشرفات الأخرى. انحنى على سياجها ونظر إلى يمين الشارع ويساره وقال:

– من هنا تمر المواكب بعد قليل.

أضاف:

– سآخذ منك نصف الأجرة.

قبلت عرضه رغم أن الشرفة ضيقة جدا لا تتسع لأكثر من شخص واحد. طلب هويتي. سجل اسمي في دفتر الإدارة، وخرجت اتجول في شوارع المدينة التي كنت أزورها لأول مرة. لم أتمكن من الذهاب أبعد من أحد الميادين القريبة الذي تجمع فيه منتظرو المواكب. غربت الشمس وسطعت الأنوار التي أضيئت منذ العصر، وانتشرت رائحة الطعام الذي كان يعده متطوعون في طرف الساحة. تناولت وجبة مع مجموعة من الزوار ورجعت إلى الفندق. بمشقة كبيرة وصلت إليه بسبب الزحام في الطرقات، واتخذت طريقي مباشرة إلى الشرفة وجلست على كرسي من الواضح أن صاحب الفندق جلبه أثناء غيابي. بدأت طلائع المواكب تقترب من يمين الشارع، فوصل مئات الأطفال والشباب والشيوخ وهم يحملون الشموع بأيديهم. ورغم ذلك تكثفت الظلمة فوق الرصيف المسقف الذي احتلته النسوة والفتيات اللائي يتطلعن لمشاهدة المواكب وهي تمر أمامهن إلا واحدة فقد كانت تنظر إلى الأعلى، إلى الشرفات كي تراني».

ارتشف أمين القليل من شايه. انتبه إلى هبوط الليل فنهض وأضاء المصباح من زر خلفه على الجدار. جلس يواصل كلامه:

«كان من الصعب تمييزها، وهي بالعباءة، بين الأجساد التي تشملها العتمة. فجأة لمحت يدا تلّوح بخجل وتشير لي أن أنزل. على عجل هبطت السلم فوجدتها تقف في باب الفندق محاطة بمجموعة كبيرة من الفتيات بقصد التمويه. ما إن رأتني حتى انسحبت هي والفتيات. تبعتهن. دخلن في زقاق ضيق وسط ظلام عميق. ولم أعد أعرف من هي سناء إلا عندما توقفت واستدارت فأحطنها صديقاتها كي لا يميزها أحد. سلمت علي وهي تتطلع حولها. قالت: «مشتاقة لك» ومسكت يدي لثوان ثم توارت بين العباءات والظلمة الكثيفة».

وقال أمين: «صعدتُ إلى شرفة الفندق لمتابعة المواكب. كانت جميع الشرفات الأخرى ممتلئة بالمتفرجين من الأولاد والنساء والشبان والمسنين. حدقت في المكان الذي كانت تقف فيه سناء قبل قليل فلمحت يدها تلّوح لي باحتراس. وبعد لحظات اختفت اليد، غابت وسط الجموع الغفيرة التي كانت تسير وئيدا مع المواكب.

اقترب موكب المشاعل يرافقه حشد من الناس تحت مئات الرايات. ثم قدم موكب قارعي الطبول وهم يهتفون: «الليلة الوداع سيدي». وعندما توقف النهر البشري عن الجريان رحت أستمع إلى أناشيد رثاء تنطلق من مكبرات الصوت المعلقة في أعمدة الكهرباء أو على واجهات المنازل حتى غفوت. أيقظتني منبهات السيارات وأصوات الباعة والمارة فنهضت وتوجهت إلى كراج السيارات عائدا إلى بغداد».

تناول أمين المزيد من الشاي وقال:

«هل تعرف يا علي تلك كانت آخر مرة أمسك فيها يد سناء، لأننا حين التقينا ثانية مع بدء الدراسة سألتني أن أخطبها. كانت في السنة

الأخيرة وكنت في السنة قبل الأخيرة لأن مدة الدراسة في دورتنا خمس سنوات يومذاك. وبعد التخرج ينبغي أن أؤدي الخدمة العسكرية، كما أن ظروف عائلتي لم تكن تسمح بالزواج. اقترحت عليها تأجيل الفكرة فرفضت. وجاء يوم اتخذت فيه القرار إما أن أخطبها أو تنهي علاقتنا. ابتعدتْ و لم أعد أراها، ومنذ تلك الساعة غدت المرأة الوحيدة التي تأتيني في المنام لأيام ثم تنقطع لشهور».

نظر علي في عيني أمين فرآه يوشك على البكاء.

***

اشترى علي سلمان هدية لأمين، قميصا صيفيا، وذهب إلى الحفلة. كان هناك جمع من الشباب والإفتيات العراقيين والسوريين وصلوا قبله، عرّفه أمين عليهم واحدا واحدا. وسرعان ما أخذوا يتبادلون الأحاديث فيما الأغاني تنطلق من آلة التسجيل. وعند منتصف السهرة نهض أمين وقال بصوت خطابي:

– قدمتم لي هدايا لمناسبة عيد ميلادي وأنا بدوري أقدم لكم هدية.

توقع الحاضرون أن يجلب صندوقا مغلفا ويضعه على المائدة، لكنه ظل في مكانه، ثم خطا نحو علي سلمان. وقف إلى جانبه. وضع ذراعه حول كتفه وقال:

– لدي أخ موسيقي اسمه علاء شاكر تتلمذ علي سلمان على يديه. مرة قال لي علاء إنه لم يسمع صوتا ساحرا كصوت علي. هذا الصوت هو هديتي لكم.

شعر علي سلمان بالحرج فقد هجر الغناء، حتى أنه لم يفكر باقتناء آلة عود. حاول أكثر من مرة أن يختبر صوته في البيت فلم يستطع إتمام أغنية واحدة. ماذا يفعل الآن؟ هل يعتذر من أمين؟ كيف له أن يعتذر؟ كان يعتز بصداقته لدرجة لا يمكن معها خذلانه بالاعتذار وفي مناسبة تخصه هي الأخيرة في حياته مثلما كرر هو ذلك. انتظر الحاضرون، وتركزت الأنظار عليه. قال علي:

– أغنية سورية أم عراقية؟

وصاح الجميع:

– عراقية وبعد ذلك سورية.

غنى البيتين الأولين من قصيدة فصحى لشاعر قديم ونظر إلى الحاضرين. كانوا صامتين يحدقون في بعضهم بدهشة، وبدوا كأنهم يتساءلون أين كان هذا الصوت الساحر مخفيا؟ طلب أحدهم إعادة غناء البيتين فأعادهما وتوالت صيحات الإعجاب، وهتفت إحدى الفتيات بقوة:

– صوتك بيجنن، الله يحرسك.

وقالت أخرى:

– يسلم لي ربك ع هالصوت.

استمر بغناء أبيات من القصيدة ذاتها. وعندما وصل إلى البيت الذي يقول: «ألا يا حمامات العراق أعنني على شجني وابكين مثل بكائيا»

قفز الجميع من أماكنهم فانسكبت بعض أقداح العصير والبيرة والعرق وصحون اللبنة والحمص، وانتشرت حبات الزيتون تحت الأقدام. عادوا إلى أماكنهم ساهمين، حذرين مما سقط قريبا من أحذيتهم. رتبت الفتيات المائدة بسرعة وبهدوء مطلق. بعد ذلك غنى لفؤاد غازي أغنية «تعب المشوار»، ولمعن دندشي «أهلا وسهلا بعودة الغياب»، ولصباح فخري «قدود حلبية»، ولهيام يونس «يا من يسلّم لي على الغالي»، ولرفيق شكري «دخل السمار يا بوي»، كما غنى موالات عراقية من مناطق الجنوب وعتابا من الغرب وبستات قديمة لم يعد يتذكرها أحد. صفقوا بحماس فيما عانقه أمين وهنأه على تلك الموهبة الساطعة مبديا دهشته من إخفائها. هكذا غنى علي سلمان بعد انقطاع طويل، غنى حتى الفجر في حفلة ظل الجميع يتذكرها على الدوام.

في اليوم التالي كرر أمين إعجابه بصوت علي سلمان وهو يهزه من كتفيه كما لو أنه يريده أن يفيق ويصحح خطأ عمره سنوات. وقال إن صوت علي يفوق الوصف الذي أعطاه شقيقه علاء شاكر، ملقيا أشد اللوم على صديقه بسبب عدم استثمار موهبته:

– هل يعقل أن تقبل بقص الحجر وتترك الغناء؟

لم يعر علي سلمان اهتماما لذلك. كان مشغولا بشيء آخر لا يعرفه، يصرفه عن الغناء والموسيقى، شيء كالعطب يدفعه نحو العزلة الروحية والاكتفاء بالهمس والمناجاة.

-٨-

وهو في رقدته التأملية الطويلة في السرير سمع علي سلمان وقع أقدام سريع يتلاشى على السلّم. نهض، اجتاز باب غرفته وألقى نظرة على غرفة ساندرا. لا صوت أو نغمة أو حركة. تطلع ناحية باب الشقة فلمح مجموعة رسائل رماها ساعي البريد من الفتحة. وضع رسائل ساندرا ومارتن على الطاولة، وفتح مظروفا بني اللون قرأ عليه اسمه وعنوانه الجديد. كان يحتوي على دفتر شيكات ورسالة توضح أنه لا يحق له صرف أكثر من شيك واحد فقط أسبوعيا. قبل أن يتناول إفطاره نزل الدرجات ببطء، قاصدا مكتب البريد. عند الكوة الزجاجية صرف أحد الشيكات، وانتقل إلى محل آخر لشراء ما يحتاجه.

في الغرفة وضع الفواكه في صحن، والخضار والجبنة واللبن الرائب في الثلاجة الصغيرة. أعد شايا وجلس إلى الطاولة. لم يكن يشتهي أي طعام مع أنه لم يذق شيئا منذ ظهر أمس. فجأة راق له أن يغني. وشرع يهمس لنفسه بأبيات أبوذية، مرة على طور العنيسي وأخرى على طور الحياوي، فاستعاد مطالبات أمين الملحة له بأن يتخذ الغناء مهنة وليس هواية فقط، ففي تلك الأيام غدا أمين مغرما بصوت صديقه المحاصر بالبطالة والجزع، لذلك كان عتبه عليه، لعدم استغلال موهبته، يزداد باستمرار.

– لديك صوت رائع قلّ مثيله لماذا لا تستفيد منه؟ لماذا أنت عاطل عن العمل؟ لماذا لا تغني في مطعم؟ أحيانا لا أفهمك.

وللوهلة الأولى لم يصدق أمين رد علي الحاسم:

– طيب، سأغني في مطعم، لا تزعل.

– وعد؟

– وعد.

فرح أمين. أراد أن يرقص من الفرح. قفز. دق الأرض بقدمه وعانق صديقه وقبّله في جبينه.

ولتأكيد عزمه على العودة إلى الموسيقى والغناء اشترى علي سلمان آلة عود مستعملة، بمساعدة مالية من أمين، وراح يتدرب كل يوم دونما انقطاع.

***

عصر يوم الجمعة ذاك لم يتمكن علي سلمان من معرفة الفتاة التي جاءت تسأل عنه في باب مقهى الروضة. أخبره النادل عبدو بأنها جاءت مرتين ورفضت الدخول والانتظار. أمضى علي وقتا طويلا محاولا تشخيص تلك الفتاة، وخمّن أن تكون من زميلات أمين في الشركة. ففي ليلة الحفلة تحدثت إحداهن معه بعد فترة الغناء ووعدت أن تزوره عندما تأتي إلى دمشق فهي تسكن في منطقة التل.

كان مستغرقا يتصفح جريدة وقت الظهيرة عندما نبهه دق خفيف

على باب المكتب. رفع بصره. كانت خولة إبراهيم تقف هناك تبتسم ابتسامة ظافرة، حيّاها ودعاها للجلوس.

سألها كيف اهتدت إليه:

– عن طريق عراقيين قالوا إنك تعمل في مكتب سوري للمحاماة.

وأضافت إنها قبل ذلك ذهبت إلى مقهى الروضة مرتين.

فهتف بصوت عال:

– إذن أنت. قال لي عامل المقهى إن فتاة سألت عنك و لم أتوقعك أبدا.

فقالت بمكر:

– من التي كنت تتوقعها إذن؟

ضحك وقال:

– لا أحد. أتذكرك دائما.

لمعت عيناها، وأشرق وجهها.

جاء المحامي مبتهجا. صاح وهو يتجه نحو مكتبه:

– ربحنا القضية يا علي.

– ألف مبروك أستاذ.

انتظرته حتى انتهى عمله. دعاها إلى الغداء في مطعم قريب.

روت له أنها حين التقت به في كراج بيروت كانت خائفة من أي إنسان، فهاجس المخابرات العراقية يطاردها أينما حلت، فهي منتمية للحزب الشيوعي وقد تلقت أمرا منه بمغادرة البلاد بعد محاولات اعتقالها. أرادت الوصول إلى سوريا عن طريق المعابر الرسمية وفشلت. كان اسمها مدرجا في قوائم المنع من السفر، لذلك اضطرت إلى دخول الأراضي السورية عن طريق التهريب يومها كانت قلقة من عدم سماح السلطات لها بالوصول إلى لبنان. همست له أنها لم تنقطع عن التفكير به منذ اللحظة التي أُنزلت فيها من السيارة لمقابلة ضابط الجوازات الذي أعادها إلى دمشق مع قرار بمراجعة فرع الأمن الخارجي. استغرق التحقيق معها أسبوعا. بعد ذلك سُمح لها بالإقامة في سوريا أو المغادرة إلى أي بلد آخر. حدثته عن بيروت وعن صعوبة البقاء فيها بسبب آثار الحرب الأهلية وصراع القوى السياسية.

سأل:

– لماذا الإصرار على بيروت؟ لماذا لا تقيمين في دمشق؟

– قرار حزبي.

صمت ممتعضا.

استقلا سيارة أجرة. مسك يدها فوضعت يدها الأخرى فوق يده وضغطتها. أحس كأن نسيما حريريا يلامسه، ثم شعر باطمئنان عندما ألقت برأسها على كتفه. شمّ في شعرها رائحة الجوري. وقبل أن تنزل

أمام بيت صديقتها في حي ركن الدين أعطاها رقم تلفون المكتب. ودّعته وهي تقول إنها سعيدة معه.

عصر يوم آخر تجولا في شارع الصالحية، وجلسا في مقهى يطل على ساحة عرنوس. سألته كيف حصل على عمله لدى المحامي فقال إن صديقه أمين هو الذي وجد له هذا العمل عن طريق الحزب الشيوعي السوري.

– أمين شاكر؟

– نعم، أتعرفينه؟

– لا، لكني سمعت باسمه ولدي انطباعات حسنة عنه من المنظمة الحزبية.

تعددت لقاءاتهما كثيرا، وكانت تزداد حميمية يوما بعد يوم. أسعدته بجلبها من بيروت راديو ترانزستور بموجات قصيرة فأخذا يتابعان مسارات الحرب العراقية الإيرانية، إذ لم يعد بالإمكان معرفة أخبار العراق من القادمين إلى دمشق بعد انقطاع العلاقات الدبلوماسية مع سوريا وتوقف السفر بين البلدين.

بعد أن باشرت العمل في إحدى المؤسسات الفلسطينية اتفقا على الزواج. وفي غضون شهرين انتقلا إلى بيت مكون من غرفة وصالة في مساكن برزة (مسبقة الصنع) فأضيئت حياة علي سلمان بنور خولة وحيويتها وحبها للحياة والناس. كانت كثيرا ما تعبر عن قناعتها بأن بمقدور الإنسان تغيير الحياة بالحب والإخلاص والقناعة ببساطة الأشياء

وذلك باقتناص لحظة الجمال الخاطفة التي قد لا تتكرر بيسر. هكذا عاش علي سلمان مسرورا تحت تلك الشجرة الظليلة التي عشقت صوته، وأحبت شخصيته وتطلعاتها وأفكارها والتزمت الحياد فيما يخص الانتماء السياسي إذ لم تحاول إجباره على الانتساب إلى حزبها، و لم تسع إلى مواجهة قناعته بالابتعاد عن التنظيمات السياسية بل تركته كما يحب.

مضت حياتهما تنساب بهدوء مع توالي الأيام حتى فاجأهما أمين بقرار سفره للإقامة في اليمن الجنوبي بتكليف من الحزب. كانت صدمة كبيرة لعلي سعت خولة إلى التخفيف من أثرها عليه. لقد اعتمد على أمين في كل شيء منذ وصوله إلى دمشق، أمين الذي لم يتخل يوما عن رعايته، فبوجوده لم يكن يخشى مما تحمله الأيام من مصاعب ومفاجآت. كان أمين مثل خولة تماما لم يفرض عليه رأيا، و لم يطالبه بالانضمام إلى تنظيمه.

في ليلة سفره قال له أمين مازحا:

– لن تحتاجني بعد اليوم. خولة ستنوب عني.

وبعد فترة وجيزة جاءه خبر صاعق آخر، فقد أبلغه المحامي بأنه قرر إغلاق المكتب لأنه وجد عملا في مؤسسة للاستشارات القانونية بالسعودية. وهكذا في غضون أيام فقد علي سلمان سندا دائما و صديقا لا يمكن تعويضه، كما فقد مورد عيشه وبات من الصعب الاعتماد على راتب خولة فقط.

عاد إلى البطالة والسأم، وأخذ دور الزوجة في المنزل فكان يقوم

بجميع الأعمال المتصلة بالتسوق والطبخ والتنظيف حتى عودتها من عملها بعد الساعة الثالثة ظهرا، فيما واضب على لقاء الناس في المقهى عصرا عله يجد عملا عن طريق أحد، كما واصل التدريب الموسيقي وتمرين صوته على مختلف المقامات وطرق الأداء بما فيها الصعبة والمعقدة جدا.

***

اكتشف علي سلمان أن المواد الغذائية لديه نفدت كلها وأنه لم يخرج من الشقة منذ ثلاثة أيام، فذهب لشراء احتياجاته. وحين عاد انتبه إلى أصيص زهور جيرانيوم إلى جانب باب شقة ساندرا. تعجب من أنه لم ير تلك الزهور قبلا، كما أن ساندرا لم تكلفه بالاهتمام بها خلال فترة غيابها. كانت الزهور توشك على الذبول. جلب ماءً من الحمام، سقاها وهو يقول بصوت خافت: «ما أجمل زهور ساندرا»، وتعهد بأن يرعاها كل يوم إلى أن تعود من رحلتها التي خيّل إليه أنها طالت كثيرا.

-٩-

على نحو مباغت اجتاحت جموع العراقيين المقيمين في سوريا حمى الهجرة إلى أوروبا.

كأنهم عرفوا للتو أن هناك دولا تمنح حق اللجوء السياسي والإنساني للمضطهَدين والمهدَدين من كل بقاع الأرض. في الأيام الأولى لليقظة المفاجئة تلك وافقت شركات طيران عربية وأجنبية على نقل الراغبين بالسفر إلى أوروبا من دون الاهتمام بالفيزا (التأشيرة) ونوع جواز السفر، فانتعشت فكرة اللجوء، ووصلت إلى ذروتها عندما انتقلت عدواها إلى العوائل المستقرة المقيمة في مختلف المدن السورية منذ سنوات. تلك العوائل غامرت بترك أشغالها وبيوتها ومدارس أبنائها واتجهت صوب السويد والدانمارك والنرويج وبريطانيا والمانيا وفنلندا. وغدت طوابير الراغبين بالسفر أمام مكاتب الطيران منظرا يوميا مألوفا. وأصبحت المقاهي مقار دائمة لهم يتداولون فيها شؤون اللجوء وما يستجد حولها من أخبار تغذيها الرسائل والمكالمات الهاتفية القادمة من أولئك الذين سافروا ووصلوا إلى مقاصدهم. بل أن هناك رسائل تجعل المغامرة مسألة هيّنة ومغرية لما تحمله من تفاصيل حول الحياة اليومية للاجئين بخصوص الحصول على مساكن جميلة، وفرص عمل كثيرة، ومساعدات مالية مجزية للعاطلين إلى أن يعتمدوا على أنفسهم، فيما

بعد، بممارسة اختصاصاتهم أو غيرها. ولقد عززت أخيلةَ المتطلعين إلى الغرب القدراتُ المالية الجديدة للاجئين في البلدان الاسكندنافية الذين أصبح بوسعهم السفر بعد فترة قصيرة من منحهم حق الإقامة. بعضهم دفعه الحنين إلى دمشق فكانت أول مدينة يزورونها عقب الهجرة.

ونشأ خبراء متخصصون في شؤون اللجوء يساعدون الراغبين بتقديم المشورة لهم حول أسهل الطرق للوصول إلى البلد المطلوب، وأنواع الإفادات التي تؤدي إلى التعامل بإيجابية مع الطلبات المقدمة عند الحدود، أو في الموانئ أو المطارات، وتسرّع في قبولها. وبات من اليسير العثور على من يتنقل بين مكاتب وكلاء السفر صباح مساء للحصول على معلومات عن شركات الطيران التي تقبل اللاجئين أو ترفضهم إذ غالبا ما يحصل تغير طارئء في مواقف بعض شركات الطيران يتسبب في وقف التعامل مع اللاجئين الذين ليس لديهم الفيزا المطلوبة أو جواز السفر الحقيقي. في هذه الفترة ازدهرت تجارة الجوازات المزورة التي لا تحتاج إلى فيزا في السفر إلى بعض البلدان، فازداد حماس العراقيين الراكضين كخيول مذعورة من شارع إلى شارع ، بحثا عن شركة ناقلة، وحين يعثرون على واحدة تقبلهم سرعان ما ينتشر الخبر فيتوافد على مكاتب تلك الشركة المئات من الحالمين بالحياة في دول اللجوء.

كانت لكل منهم أسبابه، فالبعض انتهت صلاحية جواز سفره الأصلي، والبعض الآخر يرغب في التخلص من إيجار البيوت المؤقت، وقسم ثالث أتعبهم البحث المستمر عن عمل دون جدوى. من بين هؤلاء علي سلمان وزوجته خولة فراتبها لا يكفي إلا للإيجار فقط، وقد عاشا خلال الفترة الماضية على مدخراتها، كما أن جواز سفرها لم يعد صالحا بعد كل التمديدات المزورة.

أمضى علي سلمان نحو أسبوع في إنجاز معاملة سفر خولة إلى بريطانيا بعد أن اتفق معها على أن تسافر وحدها فيما يبقى هو فترة قصيرة يبيع خلالها أغراض البيت ويصفّي بعض المتعلقات الضرورية. وكان المطلعون على شؤون اللجوء أكدوا له أهمية سفرها وحدها لأن فرص السماح لامرأة بدخول تلك البلدان أكثر مما لو كانت بصحبة رجل.

قبل يوم من سفرها اشترى لها باقة زهور، تشممتها والتقطت زهرة حمراء وضعتها بين ملابسها في الحقيبة. اختارت الأشياء الضرورية فقط فهي تحب أن تسافر متخففة من ثقل الملابس أو الأغراض الكثيرة.

ظهر ذلك اليوم وصلتها، عبر وسيط، تذكرة السفر إلى لندن وجملة من التعليمات التي تحتاجها لحظة نزولها من الطائرة. زوّدها علي سلمان برقم هاتف مقهى الروضة لتخبره بدخولها الأراضي البريطانية، وأعطاها عنوان المقهى كي تطلعه برسائل على مجريات حياتها هناك ريثما يلتحق بها.

بكت عندما حانت لحظة الفراق، بكت بدموع غزيرة وقالت بتوسل:

– لا تتأخر أرجوك.

– لا أبدا، سألحق بكِ فورا.

في المطار، وعندما أصبح عليها أن تغادر، طوقت رقبته بذراعيها وتشبثت به، وقالت بصوت متهدج:

– أرجعني إلى البيت، أريد أن أظل معك.

بكلمات متماسكة وصوت ثابت شجعها على مواجهة المغامرة وتحمل الفراق، فهي فرصة لهما قد لا تتكرر بسهولة. بلد اللجوء سيمنحهما الإقامة والجنسية وجواز السفر، فيتخلصان من الأوراق المزورة التي تبعث القلق والخوف في أي مطار أو نقطة عبور في العالم، كما سيتخلصان من البطالة والاحتياجات المالية التي لا تنتهي، وسيحصلان على سكن ملائم بعيدا عن مالك العقار الذي يطالب المستأجرين في أي لحظة بإخلائه لتبدأ رحلة البحث المضني عن سكن جديد.

انتزعت نفسها منه بمشقة وسارت دون أن تنظر إليه. النظر إليه بمثابة وداع وهي لا تريد أن تودعه. تابعها حتى توقفت أمام موظف الجوازات خلف حاجز زجاجي، ثم دخلت في مكان حجبها عنه تماما.

-١٠-

بعد أن تأكد من إقلاع طائرتها عاد من المطار وحيدا تهيمن عليه غمامة حزن، يشعر كأنه ضيّع شيئا ثمينا. أمضى ليلة من أصعب الليالي التي واجهها آنذاك فلم يغمض له جفن. في اليوم التالي بكّر في الذهاب إلى مقهى الروضة وأبلغ النادل عبدو بأنه ينتظر مكالمة مهمة من زوجته وتوسل إليه أن يهتم بالأمر اهتماما خاصا.

– ايه مو على عيني – رد عبدو بحماس.

كان علي خائفا عليها، يتملكه إحساس بالذنب لأنه تركها تسافر وحدها: «كان ينبغي أن نذهب معا؟ أي خطأ ارتكبتُ؟». مضت أربعة أيام ولم تتصل. أخذ يذهب إلى المقهى عند الافتتاح ويغادره وقت الإغلاق. ما كان يؤلمه هو الإجابة على سؤال واحد يطرحه عليه مئات الأشخاص يوميا هو: «هل وصلت؟» ظاهريا كانوا يبتغون الاطمئنان عليها لكنهم في الحقيقة يريدون الاطمئنان على أن الطريق الذي اتخذته إلى بلد اللجوء لا يزال سالكا، وأن شركات الطيران لا تزال تقبل نقل المسافرين بجواز مزور طالما هم مستعدون لدفع مبالغ مالية كبيرة.

في اليوم الخامس جاء عبدو مسرعا وقال:

– هات الحلوان، المدام وصلت.

ساله علي:

– اتصلتْ؟

– اتصلتْ وكلمتها وقالت كل شيء تمام، وراح تكتب لك التفاصيل برسالة.

– لماذا لم تطلبني؟

– كانت مستعجلة، عم تتصل من تلفون عمومي بالشارع. هات الحلوان؟

سأله عما يرغب فقال عبدو:

– علبة دخان لوكي.

نادى علي سلمان على بائع السكائر المتجول:

– أبو الخير، علبة دخان لوكي.

فتحها عبدو والتقط سيكارة متلهفا وأشعلها. نفث دفقة دخان من فمه وأنفه متلذذا قبل أن يتوجه لجمع الفناجين والأقداح الفارغة من الطاولات.

سكن جسد علي سلمان وهدأت نبضات قلبه المضطرب. غرق في أحلامه الصغيرة، ثم في الذكريات الأثيرة التي تبعث النشوة والأمل.

انتبه إلى ظل بجواره. كان هناك شاب قال إن اسمه زيدان وإنه عائد من اليمن الجنوبي، يحمل رسالة من أمين. خطفها علي من يده. دعاه

للجلوس وهو يفض المظروف. مسرورا قرأ علي رسالة صديقه التي بدأها بالاعتذار عن تأخره في الكتابة بسبب انشغالاته التي وصفها بأنها بلا نهاية. فبالإضافة إلى المهمات الحزبية هناك عمله اليومي إذ عُيّن فور وصوله مهندسا في شركة لبناء الطرق والجسور وبمرتب مجز، لكن الطقس بحرارته الحارقة ورطوبته التي تلصق الملابس بالجسد يعيقه ويربك تفكيره. عبر عن شوقه إليه وإلى الجلوس معه والاستماع إلى صوته، وسأله عن الموسيقى والغناء. كما عبر عن محبته لدمشق وقال إنه يشعر بالندم لتركها، لكنه كان مضطرا فالقرار ليس بيده. وختم رسالته بتكرار أشواقه مرات ومرات.

لم يكتف علي سلمان بأخبار أمين من خلال الرسالة فسأل زيدان المزيد. قال زيدان إنه يراه بالمصادفة، أمين مشغول في الليل والنهار، العمل الحزبي والوظيفة يستغرقان وقته كله. إنه لا يفكر براحته حتى في أيام العطل والإجازات، كثير التنقل من مدينة إلى مدينة، وحين يزور أحدا في مهمة لا يمكث أكثر من عشر دقائق. وأضاف إن أمين وقف إلى جانبه وساعده خلال وجوده هناك حتى لحظة سفره.

ثم روى زيدان أنه بعد ملاحقات سياسية متكررة في بغداد اضطر إلى الهجرة، مثل الكثير من أعضاء الحزب الشيوعي، فوصل إلى بيروت على أمل إكمال دراسته فيها. لكن ذلك لم يكن سهلا بسبب مخلفات الحرب الأهلية وارتفاع أجور الدراسة، فاقترح الحزب عليه السفر إلى اليمن الجنوبي والدراسة في جامعة عدن، فهي مدينة مستقرة وهناك تسهيلات كبيرة من الحزب الاشتراكي اليمني الحاكم للشيوعيين العراقيين. توقف زيدان عن الكلام ريثما يضع عبدو فنجاني قهوة على الطاولة.

استأنف كلامه قائلا إنه في فجر يوم من أيام الصيف وصل إلى مطار عدن. حين خرج من الطائرة فوجئ بهواء حار يلسع الوجه، يضغط على الأنفاس، ويتسلل عبر الملابس إلى الجسد فيبعث فيه الرطوبة والعرق دونما انقطاع. بدا له ذلك مدخلا قاسيا إلى بلد لم يكن يعرف شيئا عن طبيعته وطقسه وعن الحياة فيه.

عند حاجز الجوازات استقبله شخص قال إنه من منظمة الحزب الشيوعي العراقي في اليمن. أخذ منه جواز سفره وسلّمه إلى الموظف المختص الذي كان على معرفة به. ختم الجواز بسرعة وأعاده إلى المسؤول ليدسه في جيبه قائلا إن المنظمة سوف تحتفظ به. بعدها لم يسأل عن أي شيء ولم يتكلم عن شيء. كان المسؤول بدينا، قصيرا، أحمر الوجه، بشعر أشعل جعد. انتظر مع زيدان إنزال أمتعة المسافرين. وصلت الحقيبة فالتقطها زيدان وسار خلف المسؤول الذي ظل على صمته. في الخارج أوقف سيارة أجرة صغيرة. همهم مع السائق ببضع كلمات خافتة وجلس إلى جانبه، فيما جلس زيدان في المقعد الخلفي. مضت السيارة بمحاذاة البحر.

كانت المياه المتصلة بالأفق الضبابي ساكنة منبسطة خالية من السفن أو الزوارق، وثمة أشباح طيور تحلق في الأعالي. كان الطريق معبّدا خاليا، وأخذت السيارة تقطعه وحدها بأقصى سرعتها دون منافسين أو عوائق أو إشارات ضوئية. شعر زيدان بالحيرة، بعد أن قطعوا مسافة طويلة، وتساءل في نفسه ذاهلا: هل من المعقول أن تبعد المدينة عن المطار كل هذا البعد؟ وساورته الوساوس والشكوك.

خاطب زيدان المسؤولَ قائلا:

– رفيق هل أن عدن بعيدة عن المطار كل هذه المسافة؟

لم يجب المسؤول واكتفى بهز رأسه بطريقة لا يفهم منها النفي أو الإيجاب أو الوعيد. راح زيدان يحدق في الطريق الصامت يتصبب عرقا ويصغي إلى صوت محرك السيارة في ذلك الفجر الهادئ. بدأت الأشياء تتضح أمامه عندما ارتفعت أشعة الشمس من الأفق البحري فشاهد أسرابا من الغربان في كل مكان نظر إليه. الشيء الوحيد الذي ظل غامضا هو دليله الحزبي الذي يقوده إلى مصير مجهول. شعر بالتعب فأراح جسده على المقعد وأغمض عينيه. لم يعرف كم مضى من الوقت عندما أيقظه المسؤول أمام أحد البيوت وهو يعلن:

– ها هي محافظة أبْيَن.

استقبلهما شاب عراقي بترحيب كبير، وحمل حقيبة زيدان على كتفه. أعدت الزوجة فراشا في غرفة لا يشغلها أحد كي ينام الضيف قليلا. كان مرهقا. شعره متيبس وفمه جاف. استلقى على السرير الضيق لكنه لم يتمكن من النوم بسبب القلق الذي استولى عليه فقد اتفق مع المنظمة الحزبية في بيروت على الإقامة في عدن وها هو يجد نفسه في محافظة أبْيَن. كيف حدث ذلك؟ وما الغاية منه؟

وهو في رقدته في الغرفة المنعزلة تناهى إليه صوت المسؤول، الذي رافقه، وهو يودع أصحاب البيت بكلمات مبهمة ثم سمع اصطفاق الباب وراءه. بعد نحو ساعتين أيقظوا زيدان، الذي حسبوه نائما، لمقابلة مسؤول آخر. كان نحيلا مسنا يرتدي نظارة طبية سميكة، ويضع قلما في جيب سترته العلوي. طلب من زيدان أن يستعد للسفر إلى بلدة تدعى المحفد ضمن حدود محافظة أبْيَن ليعمل معلما في مدرستها. قال

زيدان إنه ليس معلما بل هو طالب يريد إكمال دراسته في جامعة عدن قبل أي شيء، وإن هذا هو ما اتفق حوله مع المنظمة الحزبية في لبنان.

رد المسؤول:

– «في لبنان شيء وهنا شيء آخر، هنا العمل أولا أما الدراسة فتؤجل».

إلى متى؟ لا يعرف. وقبل أن يغادر قال إن رفيقا سيمر عليه صباح الغد ليأخذه إلى بلدة المحفد حيث سيقيم في المدرسة نفسها التي يعمل فيها. وأكد أن ذلك قرار حزبي واجب التنفيذ.

عاد زيدان إلى الغرفة، استلقى على السرير وقد عقد العزم على رفض القرار والسعي بكل ما يستطيع من أجل العودة إلى بيروت حتى لو خسر علاقته بالحزب التي بدت له واهية تلك اللحظة. اطمأنت وسكنت نفسه لقراره فنام فترة ما بعد الظهر. عند العصر قدم لزيارته أحد أصدقائه الذين جاءوا قبله بشهور وأخذه ليمضي السهرة معه في بيته.

سأله زيدان وهو يعانقه:

– كيف عرفت إني هنا؟

– خبر مجيئك وصل قبلك بأيام.

وفي الطريق قال لزيدان متعجبا:

– كيف اقتنعت بالمجيء إلى هنا؟

شرح له زيدان ما حدث، فصمت الصديق.

سلكا شارعا مبلطا ينتهي إلى أرض رملية فسيحة. مشيا بجوار سياج طويل. كان زيدان مستغرقا يفكر في تصميمه على رفض قرار الحزب عندما سحبه صديقه من ردنه وهو يصيح:

– حية.

قفز زيدان خائفا إلى جهة صديقه. وشاهد الحية تتلوى في الرمل الكثيف أسفل السياج حتى توارت عن الأنظار. قال الصديق:

– مجيئك إلى هنا فخ كالذي وقعت فيه أنا.

عجز زيدان عن تفسير ما حدث له، وتساءل في نفسه: «لماذا فعلوا ذلك»؟

وانتابه إحساس بالغربة عن المكان والطقس والرمل وأكد أنه لن يطول به المقام هنا.

قبل أن ينعطف نحو بيته قال الصديق وهو ينظر إلى جهة بعيدة:

– من هنا اتجاه بلدة المحفد، لو أنك مشيت عدة أيام فسوف تصل إلى المدرسة التي ستعمل فيها.

وصاح زيدان متوترا:

– لن أصل إلى تلك المدرسة أبدا. سأعود من حيث أتيت.

أمضى زيدان ليلته ونهار اليوم التالي مع صديقه وعائلته، وعند

العصر عاد إلى بيت مضيفه الذي أبلغه بأن رفيقا جاء ليأخذه إلى بلدة المحفد وعندما لم يجده رجع إلى عدن.

ذلك اليوم نُقل زيدان إلى شقة تابعة للمنظمة الحزبية في المنطقة نفسها يسكنها ستة أشخاص ينتظرون حلولا لمشاكلهم. كانوا كالسجناء يتجولون بين الغرف والصالة والشرفة الطويلة الساخنة كالفرن، شبه عراة يتلظون بنهارات لاهبة ثقيلة، أو ينشغلون بالنوم أو الطبخ أو القراءة.

في صباح شديد القيظ جاء أمين لمقابلة زيدان بناء على تكليف حزبي. وبعد نقاش مطول حول رفض زيدان العمل في مدرسة بلدة المحفد. اقتنع أمين بحججه ووعد بمساعدته على العودة إلى بيروت. وبعد جهد كبير بذله مع قيادة المنظمة تمكن أمين من استصدار قرار يسمح لزيدان بالعودة على أن تتكفل منظمة لبنان بمناقشة حالته. كما قررت المنظمة شراء تذكرة طائرة له من الخطوط الجوية اليمنية (اليمدا)، التي تتعامل معها، على أن يسدد ثمنها قبل سفره.

في إجراء مؤقت لم يكن هناك خط مباشر للطيران اليمني إلى بيروت فكانت تذكرته إلى دمشق، ثم يستأنف رحلته إلى لبنان عبر الطريق البري.

في يوم سفره زاره أمين لوداعه. سلمه التذكرة وجواز سفره ورسالة إلى علي سلمان.

-١١-

ما إن علم صاحب البيت، الذي يسكنه علي سلمان، أنه أصبح يعيش وحده بعد سفر خولة حتى طلب منه إخلاءه قائلا إنه لا يقبل أن يؤجر بيته لعازب. حاول علي إقناعه كي يبقى فترة قصيرة ريثما يهاجر هو الآخر إلا أنه رفض، وهدد بالاتصال بالشرطة. وبعد سلسلة من الرجاءات وتدخل الجارة أم أحمد وافق على مهلة قصيرة.

على الفور باشر علي سلمان ببيع الأغراض والاستعداد للسفر. حصل على برقية دخول رسمية لتسهيل مغادرته الأراضي السورية بجوازه المزور وذلك عن طريق رفيق لأمين كلفه قبل سفره بمساعدة علي وقت الحاجة. لكن المفاجأة القاسية التي صدمته وتركته في ذهول لأيام هي توقف جميع شركات الطيران عن نقل المسافرين الذين ليس بحوزتهم جوازات سفر صالحة وتأشيرات نافذة. ذلك أن عددا من البلدان فرض غرامات مالية خيالية على شركات الطيران بسبب تسهيلها عمليات نقل اللاجئين من دون الاستناد إلى الضوابط الإدارية الدولية، فتخلت الشركات عن المغامرة بسمعتها وأموالها، رغم خسارتها المبالغ الطائلة التي كانت تفرضها على المسافرين. غير أن الراغبين في اللجوء ظلوا دائمي البحث عن السبل الكفيلة بإيصالهم إلى مبتغاهم كالطرق البرية أو البحرية أو عبر اجتياز الصحارى والأنهار والبساتين برفقة أدلاء يتقاضون أجورا باهظة.

هكذا بدأت معاناة علي سلمان من أجل العثور على شركة طيران تقله إلى بريطانيا، وراح يقضي نهاره متنقلا بين المقهى ووكلاء السفر والطيران. كان يهرع بسرعة الطائر كلما سمع بوجود شركة خطوط جوية تسمح بنقل طالبي اللجوء حتى لو كان خط سيرها يمر عبر عشرة بلدان. لا يهمه طول الرحلة أو قصرها، ما يهمه هو الوصول. دار على أغلب شركات الطيران. يستقبله الموظفون بوجوه تبتسم بود حين يدخل مكاتبهم، وما إن يتصفحوا جواز سفره حتى يعيدوه إليه معتذرين، فينسحب ويسرع في الخروج مرتبكا لإحساسه بأن عيون الموظفين تتابعه وتخترق ظهره، وقد يتحدثون عنه بسخرية ويضحكون.

انتهت المهلة التي منحها صاحب البيت لعلي سلمان في وقت لم يكن بمقدوره أن يستأجر بيتا آخر أو حتى غرفة فالنقود التي معه لا تكفي سوى لمصروف شهر واحد ولنفقات السفر التي ترتفع وتتضاعف كلما أحجمت شركة ما عن نقل المهاجرين بدون أوراق قانونية كاملة وبدون حجز تذكرة ذهابا وإيابا.

جمع أغراضه وملابسه في حقيبة كبيرة، واحتياجاته الضرورية في حقيبة يدوية تعلق بالكتف. خرج وقفل الباب. ضغط على جرس البيت المجاور ففتحت أم أحمد. سألته عن أخبار خولة فقال لها إنها وصلت وهو يستعد للحاق بها.

قالت:

- الحمد لله على سلامتها.

أودع الحقيبة لديها وسلمها المفتاح كما طلب صاحب البيت. وعندما استدار عائدا سمعها تردد وراءه:

– مثل ما ودعت تلاقي.

***

في المقهى أعطاه عبدو أول رسالة من خولة.

على عجل مزق أطراف المظروف بأسنانه. كانت الرسالة قصيرة، مكتوبة بالقلم الرصاص قالت فيها إنها دخلت البلد بسهولة، وأسكنتها السلطات في فندق غرب المدينة بانتظار نقلها إلى بيت مؤقت، وهي تتطلع باشتياق معذّب إلى يوم لقائهما، ووعدت أن تكتب له في ما بعد.

رغم خلو الرسالة من التفاصيل التي يحتاجها إلا أنها أرست الاطمئنان في قلبه، وبددت الشعور بالذنب الذي أضناه خلال الفترة الماضية.

أمضى النهار في المقهى وحقيبته إلى جانبه، يضعها لصق قدمه كي لا ينساها. جاء العصر واجتمع مهاجرون عراقيون على أكثر من طاولة، تناولوا القهوة والشاي والزهورات، ولعبوا النرد والشطرنج حتى هبوط الظلام. فجأة نهضوا مرة واحدة كأنهم تذكروا موعدا تأخروا عنه فتوزعوا في الطرقات المؤدية إلى البارات أو المنازل و لم يبق سوى شاب واحد. كان ينظر إلى علي من حين لآخر. لابد أنه من معارفه. كان غالبا ما يسلم عليه حين يقابله في الطريق. نهض متجها نحو علي، وقبل أن يصل قال مازحا وهو يشير إلى الحقيبة:

– ها علي، مسافر الليلة؟

دعاه علي للجلوس فاعتذر قائلا إنه يود الذهاب إلى البيت لأن لديه

عملا يوم غد. أوشك علي أن يطلب منه أن يسمح له بالمبيت في منزله ليلة واحدة لكنه خجل. وقبل أن يستأذن الشاب ويمضي سأله علي إنْ كان يعرف شخصا باسم عماد إسماعيل فقال إنه لم يسمع بهذا الاسم. بعد أن غادر الشاب تذكره علي فهو أحد المدعوين العراقيين في الحفلة التي أقامها أمين في بيته. كان اسمه رعد.

-١٢-

مع تقدم الليل يغادر رواد مقهى الروضة تباعا فيغبطهم علي سلمان لظنه أنهم يعودون إلى منازلهم، إلى زوجاتهم وأطفالهم، أو إلى ذويهم في عناوين محددة، أما هو فلا يعرف إلى أين يذهب. لم يعد لديه أحد في هذه المدينة. إنه آخر شخص يخرج من المقهى عندما يبدأ عبدو بوضع الكراسي فوق الطاولات ويكنس الأرضية ويغسل بلاطها بالماء.

تلك الليلة طاف علي سلمان في الشوارع دونما هدف حتى خلت من المارة، وساد السكون المدينة التي بدأت تهجع تحت سماء صافية تزدحم فيها النجوم الوامضة. بخطوات متعثرة قطع شارع الباكستان. اجتاز ساحة عرنوس وانعطف نحو ساحة الشابندر. من هناك دخل شارع الملك العادل في حي المزرعة. مر بجوار بناية. ومن طابقها الأول تناهت إليه أغنية أنوار عبدالوهاب «عد وآنه عد ونشوف ياهو أكثر هموم» وسط أصوات مزدحمة بلهجة عراقية. لم يستطع أن يميز ما تقوله تلك الأصوات لكن الأغنية استفزته وأثارت فيه الحنين إلى الغناء والموسيقى.

وتذكر ذلك اليوم الذي صادف فيه أستاذه علاء شاكر في شارع الرشيد أثناء فترة الدراسة عنده. مشيا على امتداد الشارع. حدّثه علاء

عن خصوصية الغناء العراقي في مقاماته وأطواره وعلاقتها بمناطقها التي نشأت فيها. وعندما اقتربا من بناية البريد المركزي في محلة السنك أمسك علاء شاكر عن الكلام وسحب يد تلميذه وقاده في شارع فرعي ليتوقف أمام محل للخياطة. وكم كانت دهشة علي سلمان غامرة حين رأى نفسه أمام الملحن أسعد مكي الذي دار حول الطاولة التي تشغل نصف واجهة المحل ليستقبلهما باحتفاء كبير. عاتب علاء شاكر على عزلته وابتعاده عن الوسط الفني. كان علاء شاكر يكن احتراما خاصا لمقدرة أسعد مكي الفنية. خاطبه وهو يشير إلى علي سلمان:

– أقدم لك موهبة غنائية استثنائية أستاذ أسعد.

فرد الملحن:

– أتمنى أن أسمعه. لكن ليس الآن، فأنا مشغول جدا، علي أن أسّلم هذه البدلة خلال يومين فاعذرني.

عاد ليقف خلف الطاولة التي وُضعت فوقها سترةٌ لم تزل بدون أكمام يعلوها مقص معدني لامع. التقط المقص. وضعه جانبا وأزاح السترة، وقال:

– الحقيقة أنا أبحث عن صوت جديد.

وجاءه رد ممتلئ بالثقة من علاء شاكر:

– ستسمع صوتا ليس له مثيل.

قال الملحن:

- أتمنى.

وأضاف موجها كلامه لعلي:

- مرْ آخر الأسبوع المقبل.

شكره علي سلمان واعتذر منه علاء شاكر وغادرا مبتهجين كما لو أنهما حققا انتصارا نادرا.

فكر علي بإمكانية أن يعطيه أسعد مكي لحنا يجتاز به اختبار الإذاعة ويبدأ مسيرته الفنية. ولساعات بقي يفكر بذلك الاحتمال وعاش أياما تحت تأثير الأمل، لكنه لم يتمكن من مقابلة الملحن لأنه اعتقل من الطريق قبل أن يحين موعده معه.

أصغى علي سلمان إلى الأصوات النازلة من الطابق الأول، وخطر له أن يهتدي بها إلى الشقة. يطرق بابها ويسأل عن إمكانية المبيت ليلة واحدة، ليلة واحدة فقط. سكتت الأصوات عندما خفّض أحدهم آلة التسجيل. من الواضح أن بين الحاضرين من يستقبل مكالمة خارجية إذ سمعه يقول:

- ايه وياك، وياك، اسمعك. وصلوا؟

وتخيل علي أن المتحدث أغلق سماعة التلفون والتفتَ إلى الحاضرين قائلا بارتياح:

- يابه الجماعة وصلوا.

وانطلقت موجة تصفيق. عاد الضجيج، وأصبحت الأصوات غير

مفهومة تماما. وتساءل علي: عمن كان يتحدث ذلك الشخص؟ من هم الذين وصلوا؟ وإلى أين؟ إلى دولة عربية أم أجنبية؟ هل هم لاجئون؟ أي خطوط جوية وافقت على نقلهم؟ وبأي جواز سفر؟ فكر مرة ثانية أن يطرق الباب ويطرح عليهم أسئلته هذه لعل أجوبتهم تسعفه في الالتحاق بخولة الغائبة البعيدة.

عاد في الطريق نفسه إلى ساحة الشابندر ثم توجه نحو ساحة عرنوس. كان صديقه النحات العراقي يسكن هنا. لقد انقطعت أخباره نهائيا. كل الذين عاشوا في دمشق وغادروها عادوا لزيارتها إلا هو.

بعد بحث استغرق وقتا طويلا، رغم المساعدة التي قدمتها زميلاته السوريات في كلية الفنون بدمشق، عثر النحات على غرفة في منزل مشترك وسط زقاق ضيق يصل إليه من ساحة عرنوس. البيت يتكون من

غرفتين تطلان على باحة مفتوحة تحتل مالكته، حين تأتي، إحداها. إنها امرأة عجوز كليلة البصر لا تكف عن الكلام والتعليق حتى وهي في غرفتها المظلمة، لكنها لا تقيم هنا بانتظام، بل تمضي أوقاتا عند أبنائها المتزوجين. إذا جاءت، وغالبا برفقة أحدهم يقود خطاها العمياء، فإنها تمضي أياما تحّول حياة النحات إلى جحيم، فهي لا تخرج من غرفتها إلى دورة المياه إلا بعد أن يغلق بابَه لأنها تخجل من جارها الرجل الغريب، كما تسميه. إنها تذهب إلى هناك كل عشر دقائق تقريبا. كان يسمع وقع خطواتها بين الغرفة ودورة المياه، وفي كل مرة ينبغي عليه أن يغلق باب غرفته كي تمر. لم تكن تسمح لزميلاته بزيارته، وتسأل عن كل من يطرق الباب. أحيانا تسأل حتى عندما لا يوجد أحد. ثرثرة وزعيق وأوامر لا تنتهي. غير أن ما كان يضايقها أكثر من أي شيء آخر هو

منحوتاته. كانت تطلب منه أن يحطم التماثيل التي تسميها أصناما. وبعد أن ضاق ذرعا بإلحاحها جمع كل منحوتاته وكدّسها في الغرفة حتى غصت بالنصب الصغيرة، والأقنعة، والوجوه، والدراسات، ومشاريع من الجبس والحجر والطين، إضافة إلى الألوان المبعثرة فوق مئات الصفحات. كان مضطرا إلى أن يتصرف بسرية تامة، أن يتحرك من دون صوت داخل الغرفة، ومع ذلك كانت تناديه من وراء الجدار، بين دقيقة وأخرى، ليلبي لها طلباتها الكثيرة. وعندما أوشك الجزع أن يبعث الجنون في رأسه أخذ يقضي أغلب أوقاته في الطرقات منتظرا الساعة التي تذهب فيها إلى أحد أبنائها. حاول كثيرا أن يجد سكنا رخيصا آخر فلم يفلح.

طرق علي سلمان الباب. لحظات وفتحه النحات. رد على التحية بصوت بارد حذر فأدرك علي أن العجوز في الدار. اجتازا باحة الحوش صامتين، يمشيان بخفة القط، دون إثارة أية نأمة.

ومع ذلك جاء صوت من داخل الغرفة السوداء:

– مين هاااااد؟

أجاب النحات:

– رفيقي يا حاجة، رفيقي.

– مييييين؟

– رفيقي.

– رفيقك واللا رفيقتك؟

– رفيقي حاجة.

– فكرت رفيقتك! شو بده رفيقك؟

– ما بده شي.

– لشو جاي لكان؟

– جاي يزورني يا حاجة.

– إيه، شو عليه.

انقطع الصوت اللجوج وساد صمت.

كان النحات حزينا ومتعبا من البحث عن عمل بعد أن أكمل دراسته في أكاديمية الفنون. فدخله من النحت لا يكفيه لأنه لا يستطيع أن يشتغل في باحة الدار خلال الأيام التي تأتي فيها العجوز، أو أيام البرد والمطر، وليس هناك من يدفع مبلغا يوازي الجهد الذي يبذله في القطعة الفنية التي ينجزها. قال لعلي سلمان إنه بدأ يشعر بالملل، فهو يقضي نهاره في الشوارع أو المقهى. سمعا حركة عبر الجدار. أنصتا إلى همس المرأة العجوز وإلى دبيب أقدامها الخافت. ثم حل السكون من جديد.

أخبر علي سلمان صديقه النحات بأن مسؤول دار الطباعة استغنى عن خدماته، فشتم النحات الدار ومسؤولها غاضبا ووصف العمل معه بأنه عبودية.

وجاء الصوت من الغرفة المجاورة:

– ويننننك؟ راح رفيقك؟

– لا لسه ياحاجة، بدك شي؟

– سكّر الباب، بدي فوت على الحمام.

نهض النحات وأغلق الباب وهو يهمهم ويلعن.

بعد أيام قرر النحات أن يقدم أوراقه إلى السفارة الليبية من أجل العمل في التدريس. في المقهى أخبر علي بذلك فشعر بحزن شديد لأنه سيفقد واحدا من أوائل الناس الذين تعرف إليهم بعد وصوله إلى دمشق بفترة قصيرة. في غضون شهرين سافر النحات إلى ليبيا وانقطعت أخباره.

في يوم ما وصلت منه رسالة يطلب فيها من علي الاحتفاظ بتمثال نصفي، يعلق عليه آمالا كبيرة، نسيه قبل سفره في زاوية من باحة الدار. وعلى الفور ذهب علي إلى بيت العجوز فوجد أحد أبنائها، لكنه لم يجد التمثال بل حطاما من الجبس المبعثر على قطعة الأرض الإسمنتية الكالحة الكئيبة.

***

اقترب من حديقة السبكي.

ها هو يجد ملاذا. سوف يقضي ليلته على العشب. يا للخيبة! كان باب الحديقة مغلقا. لماذا تغلق الحدائق أبوابَها فيما تظل أبوابُ المقابر مفتوحة؟ سار بمحاذاة سياج الحديقة فوجد مصطبة فارغة في الظلام.

جلس يفكر بالمتاهة التي كان يتوغل فيها منذ مغادرته العراق. استلقى على المصطبة، وضع حقيبته تحت رأسه ونام. أيقظه شيوع الفجر فبدأ جولة أخرى عبر منطقة الشعلان هذه المرة. اجتاز ساحة النجمة نحو محلتي الحلبوني والحجاز. جلس في مقهى واسع مفتوح لم يشغل مقاعده الكثيرة سوى عدد متناثر من الزبائن في ذلك الوقت المبكر من الصباح. لم يأته نادل ليطلب منه مشروبا فغفا وحقيبته في حجره. أفاق على أصوات المارة، وازدحام حركة السير، ومنبهات السيارات. شم رائحة القهوة وتبغ النارجيلات بأيدي رواد اختاروا الجلوس على المقاعد المطلة على الشارع المغمور بالشمس التي تمنح المدينة لونا ذهبيا ساطعا يضيء قبة السماء الزرقاء. مشى متمهلا من أثر النعاس باتجاه مقهى الروضة. كان يشعر بإرهاق شديد. في الطريق اشترى فطيرة زعتر تناولها في المقهى مع الشاي، وانتظر مجيء العراقيين الذين ينقلون أخبار دول اللجوء وسبل الوصول إليها، بل أن بعضهم أصبحوا معروفين لدى شركات الطيران ووكالات السفر للحد الذي باتت تتعامل معهم على أنهم ممثلون عن الراغبين في الهجرة.

جاءت الدفعة الأولى منهم فأخبرهم بما سمع ليلة البارحة فأشاروا إلى احتمال أن تكون تلك العائلة انطلقت نحو النرويج أو السويد من مدينة غير دمشق. بعد قليل وصل شخص كان تجول على مكاتب السفر وأكد، دون أن يسأله أحد، استمرار توقف الرحلات إلى بريطانيا إلا بجوازات سفر حقيقية صالحة مع فيزا.

تسللت الكآبة إلى علي سلمان عندما أدرك أنه سيبقى فترة طويلة بعيدا عن خولة وهو بلا عمل أو مأوى. أيقن أن بقاءه وحيدا مشردا في دمشق سيطول لذا أخذ يفكر جديا بالبحث عن مطعم يغني فيه.

أبو عندو البعل
https://facebook.com/groups/abuab/

عند الظهيرة غادر العراقيون المقهى وتفرقوا في دروب مختلفة. في الرابعة عصرا خرج ليتناول وجبة فول للغداء والعشاء. عاد إلى المقهى وطلب شايا وأخذ يتصفح جريدة كانت متروكة فوق طاولة فارغة.

في المساء أقبل رعد، وصاح من بعيد:

– ها علي أما زلت تنتظر القطار؟

ابتسم علي مجاملة. لم يكن في حال تسمح له بالمزاح، كان مرهقا ويائسا. أدرك رعد ذلك فجلس صامتا. وبعد دقائق بادره بالسؤال عن سكنه فأجابه علي بأنه بلا سكن، وأنه لا يعرف أين يبات الليلة. وأضاف إنه أمضى ليل أمس بين حديقة السبكي ومقهى في حي الحجاز، وفي الصباح جاء إلى هنا.

قال رعد إنه علم باستمرار توقف الرحلات إلى لندن إلا بجواز سفر حقيقي مع فيزا صالحة.

صمت الاثنان فترة طويلة وسط جو ثقيل من الحزن.

عبر رعد عن أسفه وقال:

– بسيطة علي، ولا يهمك، تفرج، تفرج.

وتساءل علي في نفسه بألم: كيف لها أن تفرج وأنا لا أملك سوى جواز سفر مزور وبدون عمل أو سكن؟

وعرض رعد عليه أن يقيم معه في البيت إلى أن يسافر أو يجد عملا، وقال بنبرة صادقة:

– البيت غرفة وصالة. أنا وزوجتي في الغرفة وأنت في الصالة.

قال علي بخجل:

– هذا فضل كبير لن أنساه.

نهضا عند الغروب، وقاده رعد إلى منزله في حي جوبر.

تعاطفت سعاد، زوجة رعد، مع علي ورعته كما ترعى شقيقها.

-١٣-

هبط علي سلمان إلى الأسفل، ووقف في البقعة نفسها التي وقفت فيها ساندرا ونظرت إليه مودعة لحظة بدء رحلتها في اليوم الثاني لوصوله إلى الغرفة رقم ٩. مثلها تماما رفع رأسه إلى الأعلى لكنه لم ير شيئا سوى الدرجات الحديدية السوداء. كانت النوافذ مغلقة والشرفات خالية.

توجه إلى مكتب البريد.

في الطريق قابل فتيات جميلات ما إن لمحنه حتى حولّن أبصارهن إلى بعضهن أو إلى الناحية الأخرى فعاوده الشعور المؤلم بأنه شخص مهمل، غريب، لا يعرفه أحد، ولا أثر له. المدينة ليست مدينته والمجتمع ليس مجتمعه. هل أخطأ عندما اختار المجيء إلى هنا؟ فكر بأنه كان عليه أن يظل في دمشق فنساؤها أرق من الياسمين المنعقد فوق خدودهن، ونسيمها المنعش لا يزال يغمر جبينه بالندى. كما أنه، طوال إقامته هناك، لم يشعر بأنه غريب، بل هو بين أهله وأصدقائه ومعارفه. لكنه كان مضطرا إلى المغادرة، إذ لم يعد يملك وثائق رسمية تثبت شخصيته سوى الهوية التي أصدرها مكتب شؤون العراق التابع للقيادة القومية السورية، وهذه بطاقة تعريف داخلية فقط. هل كان عليه أن يغادر العراق أصلا؟ أن يترك أخته مديحة الوحيدة التي كانت تتمنى أن يظل

إلى جانبها، وأستاذ الموسيقى علاء شاكر الذي علّمه هيمنة الروح على الأوتار؟ ولكن هل كان باستطاعة علي سلمان العيش مهددا في بلد تذروه الرياح كالعراق؟

ناول علي سلمان موظف البريد دفتر شيكات مساعدة العاطلين عن العمل. قطع الموظف واحدا ثم أخرج نقودا ورقية وراح يعدها ويلقيها أمامه على المكتب تحت حاجز من زجاج فيه ثقوب لمرور الصوت.

من محل مجاور اشترى خبزا ولبنا وطماطم وخيارا وحبتي باذنجان.

ذلك الصباح جلب له البريد رسالة من سعاد. عبرت فيها عن أسفها لما حصل مع خولة، وتمنت أن يجتاز تلك الفترة الحرجة وأن تستقر ظروفه الحياتية. نقلت له تحيات رعد وأشواقه الدائمة إليه وإلى صوته وحضوره، كما نقلت تحيات من نسرين. هل تذكر نسرين يا علي؟ إنها تتحدث عنك باعتزاز كلما جاءت لزيارتنا، وتشعر بالحزن لأنك خذلتها كما تقول. من ناحيتي فأنا أدافع عن موقفك فقد كنت أمينا لحياتك الزوجية. لكن ما حدث بينك وبين خولة، كما أخبرتنا برسالتك، يحز في نفوسنا. لا أريد أن ألقي اللوم عليها فأنا لا أعرفها ولا أعرف المشكلة بينكما إنما أقول: «يا حريمة».

وختمت سعاد رسالتها بأن نسرين وجدت عملا كمضيفة في خطوط جوية عربية.

تخرجت نسرين من قسم اللغة الإنكليزية في جامعة دمشق لكنها لم تجد العمل الذي يناسبها. وإذ ظلت تأمل في الحصول على فرصة في إحدى السفارات الأجنبية أو في شركة خطوط جوية اعتمدت

في مصاريفها على أهلها التجار الحلبيين. مرة زارت صديقتها سعاد في بيتها فالتقت بعلي سلمان. منذ اللحظات الأولى عبر عن إعجابه بجمالها وأناقتها فردت عليه قائلة إنه شاب وسيم وهي تتمنى أن يكون حبيبها مثله. وفيما شعر علي بارتياح لجرأتها حذرتها سعاد مازحة من أنه متزوج، وزوجته سافرت إلى لندن، ومن المقرر أن يلتحق بها خلال أيام، ونصحتها بألا تغامر. ناكفتها نسرين بقولها:

– سأغامر وسترين من يفوز.

في اليوم التالي التقيا في مقهى.

أخبرته نسرين، وهي تتكئ بكوعيها على الطاولة، بأنها ليست محظوظة في علاقاتها العاطفية إذ تعرضت إلى الذل والابتزاز أكثر من مرة. وروت له وقائع بعض من تلك العلاقات التي لم تجن منها سوى الألم. تحدثت كثيرا عن ذلك الألم الذي يتغلغل في روحها ويدفعها إلى الغضب والتوتر. وقالت إنها عندما تخفق في علاقة حب تتلبسها روح عدوانية فتتمسك برأيها للحد الذي ترفض الاعتراف بالخطأ أو الاعتذار عنه. طمأنها علي سلمان قائلا إنها شابة جميلة متعلمة وطموحة وأمامها الكثير من الفرص في العمل والحب، فشل تجربة أو تجربتين لا يعني نهاية الحياة. استجابت نسرين إلى كل كلمة قالها في ذلك اللقاء الحميمي الذي بعث الحيوية والدفء في قلبها الحالم. وقبل أن يفترقا قالت إنها تسكن في غرفة لدى عائلة في منطقة الجسر الأبيض. ودّعته على أمل اللقاء به بعد يومين. لكنه في مساء اليوم نفسه فوجئ بمجيئها إلى بيت رعد وسعاد. قالت إنها اشتاقت للكلام معه. فرح الزوجان بقدومها فهي تضفي على المكان نشاطا وبهجة. بعد

العشاء، الذي هيأه رعد تلك الليلة، جلست نسرين بجوار علي. كان صامتا فيما كانت تحضه بين حين وآخر:

– إحكِ لي.

– عن ماذا؟

– أي شيء، عنك، عن زوجتك.

يبتسم لها ويعود إلى صمته.

شربوا الشاي والقهوة أكثر من مرة. وفي لحظة هدوء أطفأت سعاد التلفزيون وأخذت تدندن بأغنية لناظم الغزالي وخاطبت نسرين قائلة:

– نسرين هل سمعت صوت علي؟

– لا والله.

فطلبت سعاد منه أن يغني وانضم رعد إليها بحماس متذكرا حفلة عيد ميلاد أمين التي غنى فيها علي حتى الفجر.

شرع علي يغني على طبقة القرار فأطربهم وسرى الشجن في قلوبهم. كان ينظر في وجوههم لكنه لا يرى أحدا كأن ضبابا يحجبهم عنه. ومن بين تلك الغيوم البيض الشفافة ينبثق وجه خولة، تبتسم له وتحثه على الاستمرار حين يقترب من نهاية بيت أو كوبليه كأنها جالسة أمامه تسمعه، عندها ينطلق صوته في طبقات مختلفة نحو فضاءات جديدة يحمل معه وجه خولة، ليس سوى وجه خولة المنعكس في مرايا الضباب. ارتبكت نسرين في جلستها مأخوذة بصوت لم تتوقعه أبدا،

صوت ومض في قلبها كالشعاع فملأه بالحب والأمل وسقى حقول حياتها الجافة المتيبسة بالمطر والضوء. رغبت أن يغني لها أغنية خاصة، يختارها هو، فكانت أغنية حسين نعمة «يا حريمة». أصغت نسرين بكل جوارحها وهي تعقد ذراعها بذراعه. حين انتهت الأغنية خيّم عليهم الوجوم وجلسوا ساهمين ينظرون باتجاهات مختلفة، يتنقلون من ذكرى إلى أخرى. وبعد دقائق انتبهت سعاد إلى أن نسرين كانت تضع رأسها على كتف علي وتبكي بصمت. أبعدها قليلا فتناولت يديه وغطت وجهها بهما. أحنت رأسها فتهدل شعرها الطويل واسترخى فوق فخذيها. دفعه إلى الخلف ثم وراء أذنيها. كانت مستسلمة له. رفع حنكها لينظر في عينيها. كانتا مبللتين شبه مغمضتين، وانفرج فمها كما لو أنها تستعد لقبلة. ربت على ظهرها فأعادت رأسها إلى كتفه.

قبل منتصف الليل بقليل طلبت منه أن يوصلها إلى البيت فاعتذر. كان يفكر بخولة وبلقائها الذي طال انتظاره. اندهشت وامتعضت فقد تأخرت لأنها كانت موقنة بأنه سيرافقها. لم يخطر في بالها أنه سوف يرفض لأي سبب. توجست من العلاقة به وخشيت من أنها قد تجلب لها المزيد من الخذلان. لاحظ رعد وسعاد مسحة الغضب التي علت وجهها فقررا مرافقتها.

***

ذات مساء زار بيتَ رعد وسعاد صديقٌ لهما يدعى مهند، وهو شاب سوري تخرج من كلية طب الأسنان وافتتح مؤخرا عيادة له في القابون. كان لطيفا، متعاونا، كريما. عندما عرف بظروف علي أشفق عليه. كان علي ساعتها يشعر بأن إقامته في بيت رعد طالت أكثر مما

يجب وهو بدون عمل ولا يوجد أي احتمال قريب للسفر، لذلك حين اقترح عليه مهند السكن معه وافق على الفور. كان مهند مستأجرا غرفة في قبو بناية في مساكن برزة (مسبقة الصنع) لكنه يمضي أغلب أوقاته في العيادة فهو يعمل فيها بورديتين صباحية ومسائية، حتى أنه يتناول طعامه وينام قيلولته هناك. وأحيانا لا يأتي حتى في الليل. كانت العيادة أشبه ببيت آخر له فيها كل ما يحتاجه. وقف مهند استعدادا للمغادرة فنهض علي خلفه. ناولته سعاد حقيبته. كانت عيناها دامعتين. قالت إنها اعتادت على وجوده معهما، وناشدته ألا ينقطع عنهما. بكلمات مرتبكة عبّر علي سلمان عن شكره وامتنانه لسعاد ورعد ووعد بزيارتهما. صافحه رعد ببرود إذ لم يكن راضيا على مغادرته. كان يفضل أن يبقى معهما حتى يجد عملا أو يسافر.

جلس الزوجان مكتئبين يحيطهما الفراغ الذي تركه غياب علي، والوحشة التي أطبقت على البيت. قال رعد:

– كان يجب ألا ندعه يذهب.

قالت سعاد:

– كان عليه ألا يترك بيتنا ليذهب إلى بيت آخر.

-١٤-

في القبو كان الظلام شديدا. تحسس مهند الجدار بحثا عن زر الكهرباء كما يفعل كل ليلة. فتحه فأضاء مصباحٌ يتدلى من سقف إسمنتي واطئ مساحةً كبيرة شاغرة، وقال:

– تفضل علي.

أشار مهند إلى غرفته، وإلى دورة المياه في الزاوية البعيدة، واعتذر عن عدم وجود مطبخ. قال إن مالك البناية ينوي تشييد غرف أخرى حول هذه الفسحة لتأجيرها عندها يبني مطبخا مشتركا. فتح باب غرفته، فتبدت معالمها بضوء مصباح آخر: مدخل طولي وُضِعت فيه صوفا، يقابلها مكان مربع للاستحمام وقوفا، تجاوره ثلاجة صغيرة فوقها تلفزيون بحجم ١٤ إنشا، يلي ذلك سرير لشخص واحد تعلوه نافذة مغلقة باستمرار، تشبه نافذة زنزانة، تتصل بمستوى الأرض من الخارج. تأمّل علي المكان فرآه لا يصلح للسكن الدائم لكنه أحس بالارتياح لأنه سيكون وحده معظم الوقت. ومع أن رعد وسعاد عاملاه بلطف كبير ووفرا له ما بوسعهما كي لا يشعر أنه ضيف مكلف إلا أن طول إقامته معهما عاطلا عن العمل سبب له الكثير من الحرج والضيق، إذ كان عليه أن يتقيد بأوقات نومهما ويقظتهما، وطعامهما وضيوفهما، أن يخرج

من البيت لساعات كي يمنح سعاد قدرا من حرية الحركة في منزلها، كان عليه أن يراعي كل ما يتصل بحياتهما اليومية وشؤونهما الشخصية.

أبصر علي سلمان جوانب الغرفة، وأطلق عليها اسم «مأوى التنين» فضحك مهند، ضحك كثيرا، وصار يضحك كلما تذكر هذه التسمية، وأخذ يستخدمها هو نفسه.

نام علي فوق الصوفا نوما مضطربا. ظل طوال الليل عرضة لكوابيس مفزعة وأحلام غريبة متفرقة نسيها في الصباح. قبل أن يغادر مهند إلى العيادة أعطاه ثلاثة مفاتيح لأبواب البناية والقبو والغرفة.

بقي وحده فانتبه إلى السكون الموحش في المكان المعزول تماما عن أي مصدر للصوت، وفكر بأنه يناسب تسجيل الموسيقى والأغاني.

استلقى على الصوفا يفكر بخولة ويهدئ أشواقه الظامئة المستعرة، ثم نهض ليستحم ويغيّر ملابسه الداخلية. قبل الظهر بقليل ذهب إلى المقهى. اكتفى بكأس شاي حلو كي يوفر وجبة الإفطار. كان هناك عراقيون يروحون ويجيئون، يسألون بعضهم بأصوات عالية، عن أخبار اللجوء وعما إذا انفتح خط طيران جديد ينقلهم مع أحلامهم وأمنياتهم إلى الغرب، إلى عوائلهم التي سبقتهم أو إلى أحبائهم البعيدين. سمع أحدهم يقول إن رحلة واحدة فقط غادرت البارحة إلى أوروبا مرورا بليبيا وعلى متنها لاجئون، بعدها مباشرة أُغلق الخط. لم يعر أحدٌ اهتماما لذلك، فربما كان الخبر مجرد إشاعة. لقد حدث أكثر من مرة أن انتشر خبر تدشين خط جديد فيفزع الراغبون باللجوء إلى الخطوط الجوية المعنية، ويزدحمون بالمئات قبل أن تفتح أبوابَها، لكنهم يواجهون نفيا قاطعا فيعودون خائبين.

في المساء مر مهند بالمقهى. لم يجلس. سأله علي عن وجهته، فأجابه ضاحكا:

– إلى مأوى التنين، أغيّر ثيابي وأخرج. لن آتي الليلة. مررت فقط للاطمئنان عليك.

ضحى اليوم التالي ذهب علي سلمان إلى بيت أم أحمد ليأخذ حقيبته. أسرعت لجلبها. تناولها منها وهي تدعو له بالسلامة والتيسير. في الطريق شعر بالجوع فاشترى فولا وخبزا. تناول إفطاره في «مأوى التنين» وغادر إلى المقهى. ظل هناك حتى الغروب. لم يأت أحد ممن يعرفهم، لكنه سمع ثلاثة أشخاص، عراقيين وسوريّا لم يره من قبل، حول طاولة مجاورة، يتحدثون عن السفر وغلاء التذاكر. سأل علي سلمان أحدَهم عن آخر أخبار الرحلات الجوية فبادر السوري قائلا:

– أترغب بالسفر؟

وقبل أن يرد علي كتب الرجل اسم «سميرة» على جزء ورقي اقتطعه من علبة سكائره. ناوله إياه، وقال:

– إسأل عنها في مكتب الخطوط السورية بالحلبوني. قل لها أنا من طرف زوجك.

ذهب علي إلى هناك يحدوه أمل كبير بالحصول على حجز. كان أول الداخلين إلى المكتب. سأل عن سميرة فأشار موظف الاستعلامات إلى امرأة أنيقة تجلس خلف طاولة بعيدا في الزاوية اليمنى.

– صباح الخير مدام، أنا من طرف زوجك.

– أهلين، تفضل.

جلس مرتبكا على كرسي جلدي وسلمها جواز سفره. سألته عن الجهة التي يقصدها فقال:

– لندن.

– ذهاب وإياب؟

– ذهاب فقط إذا ممكن.

تصفحت الجواز فاسرعت في الدخول إلى غرفة جانبية. طال غيابها فارتاب. عادت بوجه محمر، واعتذرت بلسان مضطرب قائلة إنه لا يتوفر لديهم حجز إلى بريطانيا حاليا، وأضافت بسريّة وهي تتطلع حولها:

– راح سجل اسمك عندي وبس تحين الفرصة بخبرك عن طريق جوزي. مع السلامة.

شعر بالضيق من تلك المعاملة، وخيّل إليه أنها عرضت جواز سفره على مسؤول أمني فوبّخها، وربما قال لها إنه كان عليها أن تدرك بنظرة واحدة أن الجواز مزور بدلا من تضييع وقته. أسرع مبتعدا عن المكتب إذ خشي من المراقبة فربما يتهم بعلاقة مع شبكة لتزوير الجوازات لتأمين السفر لطالبي اللجوء وهو ما يؤدي إلى مقاضاة شركة حكومية تعتبرها الدولة رمزا لها.

عصر اليوم التالي قابل الشخص السوري في المقهى فوجده غاضبا. عاتب علي سلمان قائلا إنه كان يجب أن يخبره بأن الجواز مزور لأن زوجته اقتحمت البيت متوترة. قالت وهي ترتعش:

– بدك تخرب بيتي. باعت لي لاجئ عراقي وبجواز مزور، شو مجنون أنت!

قال إنه لم يتمكن من تهدئتها إلا بشق الأنفس وعشرات الاعتذارات، وانسحب خارج المقهى بوجه محتقن فيما ظل علي وحيدا شاردا يفكر بالسبب الذي دفع الرجل إلى عرض المساعدة. وقال في نفسه «إذا كان باستطاعتي السفر بجواز سفر رسمي وبتأشيرة صالحة لماذا أقبل مساعدتك؟ فأنا في هذه الحال لن أحتاج إلى وساطة أحد. ببساطة أذهب إلى أي مكتب طيران وأشتري تذكرة وأسافر». واحتار علي سلمان في تفسير تدخل الرجل وعرضه المساعدة بتلك السرعة. ظل يفكر في ذلك حتى اقترب منه شاب نحيف، قال

إنه وصل إلى سوريا أمس، وأخرج رسالة من جيبه:

– هذه من علوان عزيز.

صعق علي سلمان. كانت مفاجأة مذهلة. وصاح بصوت عال: «إذن هو بخير». كانت الرسالة مشحونة بالعواطف والأمنيات وقد تكرر فيها السؤال عن الموسيقى والغناء. عندما انتهى من قراءتها قبّلها. وقال للشاب، الذي بدا مندهشا، إن صديقه علوان عزيز يطلب يد أخته مديحة. وسأل الشاب:

– موافق؟

– موافق، لكن كيف سأوصل موافقتي له؟

– أكتبْ رسالة وأنا أبعثها من الأردن عن طريق أخي فهو مقاول في عمّان ويذهب إلى بغداد كل شهر لزيارة عائلته.

رحّب علي سلمان بالفكرة وأشاد بنبل الشاب الذي أخبره بأنه من سكان مدينة الثورة، وأنه يعرفه ومن أشد المعجبين به وبصوته، لكن لم تتوفر له فرصة للتعرف عليه هناك. صمت لحظات ثم قال بنبرة مترددة هامسة بأن علوان عزيز أوصاه بأن ينقل إليه أن المخابرات اعتقلت سليم عبد الحسين، ابن اختك حليمة، وأطلقت سراحه بعد أسبوع.

سأله علي عما إذا كان علوان عزيز أخبره بسبب الاعتقال فقال:

– لا. لكنه قال إن المخابرات تستدعي مديحة للتحقيق من حين لآخر.

وأضاف:

– التحقيق مع مديحة يدور حولك، يريدون أن يعرفوا في أي بلد تقيم أنت. هل تتصل بأهلك؟ هل تعرف مديحة عنوانك أو تلفونك؟ في كل مرة يطلبون منها أن تحثك على العودة؟

شعر علي بالذنب فهو السبب في المتاعب التي تتعرض لها أخته.

قبل أن يغادر الشاب سأله علي سلمان إن كان سيقيم في دمشق فقال إنها محطة مؤقتة له، لكنه لا يعرف إلى متى، ولا إلى أين سيتوجه بعدها. شقيقه يعرض عليه الإقامة في عمّان والعمل معه، لكنه يفضل أوروبا.

صباح اليوم التالي التقيا في المقهى. سلّمه علي سلمان الرسالة ومعها مئتا دولار لمديحة اقتطعها من المبلغ المخصص لمصروفه بانتظار الحصول على عمل أو السفر.

-١٥-

مضى أكثر من شهر على إقامة علي سلمان في «مأوى التنين».

خلال الأسبوع الأول زارته نسرين ثلاث مرات بذلت فيها جهدا كبيرا لانتزاعه من تردده و لم تنجح. في الزيارة الأخيرة، وبعد نقاش حاد وعتب وبكاء، غضبت وتوترت، وغدا وجهها أزرق، ثم نهضت مرتجفة وهي تؤدي بيدها إشارة بذيئة:

– روح اندفس بـ ..... خولة.

خطفت حقيبتها وخرجت.

كان يتظاهر بأنه لا يعرف شيئا عن مشاعرها بينما هو يدرك تماما أية حمى تسري في جسدها الفتي، وأي جنون يدفعها إلى الاهتمام به، بل يستطيع أن يتتبع كل نداءاتها الجامحة. ذلك اليوم شعر بميل نحوها، لكنه ميل قصير الأمد لأنه قاومه بقوة و لم يسمح له بالسيطرة عليه. كان يجبر نفسه على تحمل القسوة عليه وعلى نسرين. ومع ذلك بعد كل العناء الجسدي والعاطفي الذي تسببه له يشعر بالرضا لأنه بقي أمينا لزوجته. ولكي يحفظ طاقته على الصبر والتحمل كان ينصرف، وأحيانا دون وعي منه، إلى التفكير بخولة والحلم بلقائها ووصالها.

التقط علي سلمان الرسائل الخاصة بساندرا ومارتن من أرضية الشقة وعاد إلى غرفته. أطرق في سكون فوجد نفسه جالسا في مقهى عجيل ذات مساء صيفي. كان يتابع فيلما أجنبيا يعرض في التلفزيون عندما جاء سبهان وجلس إلى جانبه فامتلأ المكان برائحة عفنة تشبه رائحة حيوان متفسخ. تململ علي في مقعده. خجل أن ينتقل إلى مكان آخر كما فعل بعض رواد المقهى القريبين. إنه أحد معارفه من شغيلة البناء اشتهر بعدم الاستحمام، وعلاقاته بالمومسات التي يتحدث عنها كما لو أنها أساطير. ذلك المساء كان سبهان عائدا من العمل فآثار الجص لا تزال واضحة على يديه. طلب شايا فيما ظهرت لقطة لرجل وامرأة يوشكان أن يتعانقا ثم اختفت. استاء سبهان وشتم المخرج والتلفزيون. التفت إلى علي وسأله إن كان جرب طعم المرأة. بوغت بالسؤال فتردد في الإجابة، ثم وجد أن ليس ثمة ما يبرر هذا السؤال. وبعد إلحاح من سبهان أجابه بالنفي. وانطلق سبهان يعدد له المرات التي نام فيها مع مختلف النساء. لا يرغب علي بحكايات سبهان ومبالغاته لذا كان يتركه يروي مغامراته دون أن يصغي إليه، أما هذه المرة فألفى نفسه يستمع باهتمام. قال سبهان إنه كان في سيارة أجرة ذاهبا لزيارة أخته التي ترقد مع ابنها المريض في مستشفى الحميّات بمنطقة كمب سارة عندما أخرج السائق رأسه من النافذة وصاح:

– تروحون؟

التفتنا، نحن الركاب، إلى الجهة التي يقصدها السائق فرأينا ثلاث نساء يمشين على الرصيف ويتمايلن بهدوء ويبتسمن للسائق الذي ازدادت حماسته في الضغط على دوّاسة البنزين، لكنه خفف السرعة بعد اعتراض الركاب. عصر الخميس التالي، وبدون أن اغتسل من جص البناء وإسمنته ورمله، ذهبت إلى هناك. قابلت إحداهن فغمزتني ومضتْ في طريقها.

مشيتُ خلفها. التفتتْ وابتسمتْ فتبعتها. انعطفتْ في شارع جانبي. مشتْ بسرعة، فأسرعتُ حتى لحقت بها وجاورتها فهمستْ:

– عندك مكان؟

– لا.

– اتبعني.

تباطأتُ. دخلتْ في شارع فرعي. وقفتْ في باب. وهي تهم بفتحه أومأتْ لي أن أدخل وراءها، فدخلتُ كالقط. لم أكن خائفا إنما كنت قلقا فتلك هي المرة الأولى التي أغامر فيها بالمجيء إلى هذه المنطقة فربما يتعرض المنزل إلى مداهمة من الشرطة التي غالبا ما تشن هجمات إذا وردتها شكاوى كثيرة.

حرك سبهان استكان الشاي بالملعقة وتناول رشفة مطلقا صوتا يشبه الشخير. واصل كلامه قائلا:

كانت تجربة رائعة. ظلتْ تصرخ تحتي. وأطلق ضحكة ساخرة مجلجلة وقال مختنقا بالكلمات: كنت أحسب أن صراخها من المتعة لكني اكتشفت أنها كانت تتوجع من ثقلي عليها. عاد يضحك من نفسه، مختنقا بسعاله، وقال: منذ ذلك اليوم أخذتُ أذهب إلى هناك من حين لآخر لألتقط إحداهن أو تلتقطني. لكن المشكلة هي أن العثور عليهن في المكان نفسه ليس هيّنا فالشرطة تلاحقهن. هل تريد أن تجرب؟ سآخذك معي في الجمعة المقبلة.

***

كان عصرا هادئا. تجولا على امتداد الشارع الذي شاهدهن سبهان فيه سابقا. قطعا الشارع مرات عدة ذهابا وإيابا و لم تظهر أي منهن، وبعد نحو ساعة شعر سبهان بالحرج. وقال:

– «قحاب كل يوم يملأن الشارع، اليوم على حظك ولا واحدة».

ومع ذلك واصلا المشي والتحديق بعيون متوثبة حتى انسحبت الشمس وراء المنازل والمباني وتركت لونها النحاسي الشاحب فوق أطرافها ثم توارت تماما. كان علي صامتا، يتطلع في جانبي الشارع وفي الممرات الضيقة عله يعثر على إحداهن مختبئة هناك من أعين رجال الشرطة أو من الفضوليين الذين يعتدون عليهن أمام المارة. قال:

– سبهان، لماذا لا نذهب إلى بيت المرأة التي رحت معها أول مرة؟

– لا استطيع. تلك كانت المرة الوحيدة. القحبة طردتني وقالت: لا تأتي ثانية فرائحتك عفنة لا تطاق. وأغلقت الباب بقوة.

هبط الغروب. تكثفت العتمة، وأضيئت مصابيح الشوارع والبنايات وواجهات البيوت، وخلت الحدائق من المتنزهين، وقال سبهان بنبرة يأس:

– لن يأتين بعد هذا الوقت.

-١٦-

مع فقدان الأمل بالسفر وتراكم أيام البطالة وعنائها وآثارها النفسية والمالية بدأ علي سلمان يفكر جديا بالغناء في المطاعم، الأمر الذي ظل يؤجله دائما، إذ كان يخشى من أن تغويه تلك التجربة وتجرفه إلى البارات الرخيصة والملاهي الليلية. لكنه في هذه الفترة وجد نفسه أمام خيار واحد هو أن يقبل بما فُرِضَ عليه ويختار مكانا مناسبا له. ولهذا الغرض اتصل بعدد من المطاعم التي تتوفر على سمعة طيبة في أوساط روادها وفنانيها.

قابل صاحب مطعم «السهرانين». استمع إليه وأبدى إعجابا شديدا ووافق على التعاون معه بدون تردد. ومع أن علي سلمان شعر بالغبن في الأجرة التي سيتقاضاها مقابل الغناء كل ليلة لمدة ساعتين إلا أنه وافق عليها معتبرا ذلك العمل مؤقتا فهو ينتظر فرصة للسفر قد تحدث في أي يوم.

كانت وصلته تبدأ في العاشرة تتخللها نصف ساعة للاستراحة وتناول وجبة العشاء. وإذ توقع صاحب المطعم النجاح السريع للمغني الشاب إلا إنه لم يتوقع جاذبيته القادرة على جلب كل ذلك العدد الكبير من الزبائن خلال فترة قياسية.

سيطر علي سلمان على الجو العائلي للمطعم وفضلت الفتيات، اللائي اعتدن على الرقص مع إيقاعات الغناء، الاستماع إلى صوته الذي بهرهن برخامته وشجنه وانتقالاته السهلة العميقة، وامتنع الرجال عن عادة ترديد الأغنيات، التي يحفظون كلماتها، مع المغني. كانوا يحتسون مشروباتهم باسترخاء على أنغام العود فيما تدور في رؤوسهم أطياف الحب والأحلام والتجارب الرومانسية القصية. ومن أجل الإفادة التامة من الوقت المخصص للغناء تعمد صاحب المطعم توقيت تقديم العشاء مع استراحة المغني. وبهذا منح الرواد فرصة أكبر للاستمتاع.

وهكذا يوما بعد يوم تكوّن جمهور خاص لهذا المطعم، جمهور يأتي لتناول الطعام والشراب والاستماع إلى غناء رصين كان مهددا من غناء خفيف صاخب يقوم على الإيقاعات السريعة المتلاحقة. وأخذ المطعم، كل ليلة، يغص بالرواد المعجبين بطريقة غناء علي سلمان وصوته مما اضطر صاحب المطعم إلى فرض الحجز مسبقا لتفادي الإحراج، ذلك أن بعض الزبائن كانوا يقفون ساعة أو ساعتين في الباب، تحت الإعلان الكبير الذي يحمل صورة المغني بانتظار الحصول على طاولة فارغة.

بدا علي سلمان منتشيا بنجاحه الساحق فاشترى بدلتين جديدتين وحذاءً مناسبا وقمصانا وأربطة بعد زيادة أجره غير المتوقعة، ووعد نفسه بالمزيد. أحس لأول مرة بالسعادة التي يجلبها العمل، حتى أنه فكر بالانتقال من «مأوى التنين» إلى سكن خاص به، لكنه آثر التريث، استجابة لنصيحة مهند، خوفا من المفاجآت الغريبة الطارئة.

في إحدى الليالي دخل المطعم ثلاثة شبان برفقة فتيات. بدوا أقوياء بأجساد رياضية. لم يكن لديهم حجز مسبق فاعتذر منهم صاحب

المطعم لأن القاعة كانت ممتلئة وليست هناك أية طاولة شاغرة. وبدلا من العودة أو الانتظار، كما يفعل معظم الزبائن، أهملوا الاعتذار وشقوا طريقهم بين الموائد عنوة. تعلقت عيون الرواد بالشبان الثلاثة وفتياتهم وبالندل الذي توجسوا من شجار وشيك. توقف علي عن الغناء. توسط الشباب القاعة وهم يحملقون بتحد ساخر بصاحب المطعم، وهمهم أحدهم متوعدا فالتقط صاحب المطعم الرسالة إذ خشي على حياته ومهنته فأمر نادلا بجواره أن يهيء طاولة بسرعة. وخلال دقيقة جلبت طاولتان وضعتا متلاصقتين، وفرشتا بقماش أبيض، فبدت طاولة واحدة أحيطت بستة كراس، فيما أخذ صاحب المطعم يردد مرحبا:

– تفضلوا، أهلا وسهلا بالشباب، أهلا وسهلا، تفضلوا، تفضلوا، أهلا وسهلا.

تجاهلوا الترحيب وجلسوا متقابلين، كل واحد بجوار فتاته. طلبوا قنينة عرق ميماس وبيرة وعصائر ومازة منوّعة. وسرعان ما امتلأت المائدة بالكؤوس والملاعق وبأطباق اللبنة والحمص ومتبل الباذنجان والكبة والفتوش والكبدة النية والتبولة ومخلل اللفت وجاط الخضرة إضافة إلى الخبز الأبيض المقطع إلى مثلثات. لقد تفنن الندل في خدمة الشباب الذين ملأوا كؤوسهم وتبادلوا الأنخاب وبدأوا يدخنون. تنفس رواد المطعم بارتياح وسرت همهمة بينهم لكنها توقفت عندما استأنف علي سلمان الغناء مبتدئا بأغنية صالح عبد الحي «ليه يابنفسج» فانتشى الحاضرون بصوت يسمعه بعضهم لأول مرة. ثم غنى لمحمد عبد الوهاب «لما أنت ناوي تغيب على طول» عندها بدأ الشبان الثلاثة يتهامسون مستاءين. كان علي سلمان يؤدي تلك الأغنيات مع عزف على العود فقط من غير طبول أو دفوف بينما هم يريدون أغنيات

إيقاعية سريعة كي يرقصوا مع فتياتهم، أغنيات تصم الآذان وتمنع أي متجاورَيْن من الحديث. انتظروا أغنية أخرى لكنها لم تحقق رغبتهم. دبت الخمرة في رؤوسهم فأوقدت روحا عدوانية مضمرة وقاطعوا المغني مرات عدة، ثم راحوا يطلقون كلمات جارحة. أراد علي أن يتوقف لكن صاحب المطعم أشار إليه أن يهملهم. كان يغني حسب برنامج وضعه في ذهنه خلص إليه من تجربته خلال الأسابيع الماضية. جاء دور قصيدة أحمد شوقي «مضناك جفاه مرقده»، وبدا واضحا انزعاج الزبائن من تصرف الشبان الثلاثة وطالبوهم بالإنصات دون أن يوجهوا كلامهم إليهم مباشرة، إذ كانوا مدركين أن الثلاثة لن يترددوا في القيام بأي شيء يفسد الحفل. حاول صاحب المطعم تهدئتهم وأمر أحد العمال أن يعزف إيقاعات على الطبلة ومرافقة علي سلمان الذي رفض ذلك واعتبره إهانة فأمسك عن الغناء. وقبل أن يحمل العود ويترك المكان اعتذر من باقي الزبائن فنهض أحد الشبان الثلاثة وباغته بلكمات متلاحقة في الوجه والبطن فتهاوى وسقط العود من يده. تلقف شاب آخر العود وراح يطرق رأس المغني. ووسط صمت الحاضرين واكتفائهم بالتفرج واقفين أو جالسين مستندين إلى طاولاتهم، سحب المهاجم الأول قضيب المايكرفون وضرب علي سلمان على قدميه وأضلاعه، ثم انهضه ثلاثتهم لكنه لم يكن قادرا على الوقوف، وقبل أن يسقط ثانية حطموا رأسه باللكمات العنيفة، وجسده بالركلات المتتالية، ولم يتركوه حتى أغمي عليه. غادروا المطعم متبخترين، تتبعهم فتياتهم، دون أن يلتفتوا. كانوا واثقين من أن أيا من الزبائن أو الندل لم يكن ليجرؤ على مهاجمتهم أو حتى اعتراضهم. ضجت القاعة بالسخط وهب بعض الرواد لنجدة المغني المغطى بالدماء التي غيبت ملامحه.

عندما أفاق من غيبوبته وجد نفسه في مستشفى «المواساة» ملفوفا بالضمادات وثمة عشرات القطب في مختلف المواضع من جسمه. كان أصدقاؤه مهند، ورعد وزوجته سعاد، يحيطون به ما عدا نسرين التي ما أن فتح عينيه حتى سأل عنها. ومع أن عدم مجيئها أزعجه إلا أنه فضّل ألا تراه وهو على تلك الحال. كان كل جزء في جسده يئن من الألم الممض، وكانت روحه تتشظى من الإهانة والذل.

أُخرِج من المستشفى يمشي على عكاز. أراد مهند أن يأخذه إلى «مأوى التنين» فاعترض رعد وسعاد واقترحا أن يقيم معهما لبعض الوقت قائلين إنه يحتاج إلى من يرعاه ويعد له طعامه ويشرف على أدويته بينما مهند سيكون منشغلا بعيادته طوال النهار. أمضى علي أسبوعا في ضيافتهما لم تظهر نسرين خلاله. وحين سأل سعاد عنها قالت إنها لم ترها منذ مدة. في نهاية الأسبوع الثاني عاد علي بصحبة مهند إلى «مأوى التنين» لكنه لم يعد إلى الغناء في أي مطعم.

***

وصلته رسالة من خولة تقول فيها إنها مشتاقة له شوقا لا حدود له لدرجة أنها ترى المدينة موحشة بدونه، ورسمت له صورة مشرقة عن الحدائق والمتنزهات والشوارع وتفاصيل عن السكن والمساعدات الاجتماعية للعاطلين. وفي الختام اعتذرت عن تأخرها بالكتابة إليه بسبب انشغالها بترتيب الشقة المؤقتة التي انتقلت إليها، والتي تنتظره فيها، وثبتت عنوانها ورقم التلفون.

أفرحته الرسالة وشعر بأن خولة هي حبيبته الوحيدة، بل هي كل ما يملك في هذا العالم، هي أهله ووطنه وأمله، وهي القوة الظافرة التي

ستعالج روحه المهانة الملتاعة، ستفتح له الآفاق في بلد اللجوء وتعوضه عن خساراته وآلامه. بعثت فيه الرسالة إحساسا جذلا وقناعة رضية بأن طريقا ما سيقوده إلى خولة في نهاية المطاف، وراح يحلم بالوصول إليها والتجول برفقتها في الشوارع والأسواق والساحات العامة والحدائق والمتنزهات، وعلى ضفاف الأنهار. أراد أن يتحدث إليها، أن يسمع صوتها، أن يخبرها بما حصل له في غيابها، فذهب إلى البريد المركزي. طلب من موظف الخط الدولي أن يؤمن له اتصالا مع لندن وناوله، عبر كوة صغيرة، ورقة برقم التلفون. بعد نحو نصف ساعة من الانتظار قرب كابينة التلفونات قال له الموظف:

– لا أحد يرد.

ذات مساء عاد مهند مبكرا وأخبره بأنه عالج أسنان رجل من دير الزور له أقارب في الخطوط الجوية الرومانية عرض المساعدة بخصوص إمكانية السفر إلى بريطانيا على متن تلك الخطوط، وإنه اتفق معه على موعد في مقهى الروضة. راح علي سلمان يتوسل الزمن أن يسرع كي يحين اللقاء. كم هي عنيدة تلك الساعات التي تدب ببطء شديد يثير السخط. صار يشعر برجفة في قلبه كلما اقتربت اللحظة المنتظرة.

كان جالسا في المقهى وعيناه مثبتتان في المدخل عندما همس له مهند بأن الشخص الذي في الممر هو الديراوي. سأله علي:

– ما اسمه؟

– نسيته.

نهضا لاستقباله، صافحهما بحرارة وسأل عن أحوالهما كأنه يعرفهما منذ زمن طويل فشعرا بحميميته. طلبا له قهوة. أخرج سيكارة من علبة حمرا طويلة وراح يدخن. قال إنه عائد إلى دير الزور غدا وإنه حدّث أقاربه، واسمه غسان، حول قضية السفر، وأكد له أنه سيتولى كل شيء. ثم نظر إلى علي وقال:

– لا تقلق أنت الآن بيد أمينة.

تذكر علي الالتباس الذي حصل مع الرجل السوري وزوجته موظفة الخطوط الجوية. ولكي لا يتكرر الشيء نفسه أخبر الديراوي بجواز سفره المزور. وجاءه الرد سريعا بأن مهند أوضح له كل شيء وهو بدوره أبلغ غسان بحال الجواز.

سرت في جسد علي سلمان قشعريرة.

أكمل الديراوي قهوته واستأذن. نهضا معه ورافقاه حتى الباب الرئيسي. ودّعهما ووعد مهند بزيارة حين يأتي إلى الشام في المرة القادمة.

قرر علي سلمان ألا يفرح وألا يتفاءل أكثر مما يجب. أراد أن ينظر إلى الأمر على أنه محاولة قد تفشل أو تنجح لذا يجب ألا يعول عليها كثيرا كي لا يتعرض إلى صدمة قاتلة في حال الإخفاق. وفيما كان علي غارقا في صمته وشروده بدا مهند أكثر تفاؤلا واعتبر الديراوي رجلا جادا ومخلصا في وعده، وتوصل إلى أنه لو لم يكن واثقا من قدرة أقاربه على تقديم مساعدة حقيقية لما عرض الأمر بتلك السهولة. ولذلك لم يضع مهند في اعتباره احتمال الفشل على العكس من علي الذي أضنته

التجارب الفاشلة والمحاولات العقيمة الخرساء التي لا تترك لدى المرء سوى المرارة والإحساس بالضعف والهوان. كان علي يدرك أن هناك الكثير من الناس الذين يتصرفون على أنهم قادرون على القيام بمعجزات لكنهم في الواقع لا يستطيعون فعل أي شيء، ومع ذلك تراهم يتبجحون بعرض خدماتهم بمجانية تبدو مخلصة لكنها متهورة خرقاء.

في ضحى اليوم التالي ذهب علي إلى مكتب الخطوط الجوية الرومانية وقابل غسان. كان شابا نشيطا، بدا كأنه المسؤول الأول في المكتب، وعلى علاقة طيبة مع جميع موظفيه. كان يرد على استفساراتهم ويمزح ويضحك معهم. أخذ جواز سفر علي. تصفحه وأعاده إليه وسأل:

– إلى لندن؟

– نعم، الله يخليك. تعبت من الانتظار.

– ولا يهمك، العراق عزيز علينا.

– أشكرك، الله يحفظك.

صمت غسان قليلا وقال:

– رحلتك ستكون: دمشق، لندن مرورا ببخارست. جوازك لا يحتاج فيزا إلى لندن لكن يحتاجها إلى بخارست. راجعْ السفارة الرومانية غدا.

– هل تعتقد أنهم سيعطوني فيزا؟

– نعم.

قالها بثقة مطلقة وعلى وجهه ابتسامة رائعة، قالها وكأن كل شيء يجري وفق الأصول الرسمية والقانونية، قالها وكأنه هو الذي يمنح التأشيرات، كأنه هو القنصل وليس موظفا في مكتب للخطوط. وبقدر ما أمدت تلك الثقة علي سلمان بالقوة أشعرته بالخوف من الفشل والإحباط. لذلك كان مرتابا عندما اتصل بمهند في عيادته من تلفون المقهى. هنأه مهند فاعترض علي، ورد صديقه بغضب:

– تفاءل يا أخي، تفاءل. طول عمرك خائف.

– طبعا خائف فأنا لاجئ. هل رأيت لاجئا لا يخاف؟

قال مهند:

– معليش أنا جاي عالبيت ونحتفل.

– لا أرجوك، أريد أن أنام كي ينقضي الوقت بسرعة.

لم يأت مهند وأمضى علي سلمان ليلته وحيدا في «مأوى التنين». استيقظ مبكرا ليصل إلى السفارة الرومانية قبل أن تفتح أبوابها كي يكون الأول الذي يقدم طلبه. هناك فوجئ بطابور طويل راح يزداد كلما ارتفعت الشمس. وعلم من المنتظرين أنهم جميعهم ينشدون اللجوء إلى أوروبا.

بعد نحو ساعتين جاء دوره. ومن نافذة مشبكة في الجدار تناول الموظف جواز سفره، تسلم ثمن الفيزا، وأعطاه قصاصة ورق كتب عليها تاريخ اليوم التالي وهو يقول:

– بين التاسعة والواحدة.

حين تسلم الفيزا كان يرتجف من الفرح. لم يتصور أبدا أنه سيحصل عليها بهذه السهولة. أراد أن يتوجه فورا إلى مكتب الخطوط الجوية الرومانية، لكنه تمهل فربما لا يستطيع تحمل أي صدمة جديدة لذا انتظر حتى يذهب مهند معه.

***

لم يتأخر مهند، أغلق العيادة وجاء إلى المقهى. وعلى الفور توجها لمقابلة غسان في مكتب الخطوط. استبد بعلي قلق شديد أعجزه على الكلام مع مهند فلاذ بالصمت.

كان الوقت ظهرا وغسان وحده في المكتب. استقبلهما بترحيب، وسأل إن كان الذي يرافق علي هو الدكتور مهند. أكد له إنه هو. مد يده وصافحه، ودعاهما للجلوس. وقال غسان:

– بدي زورك بالعيادة دكتور، عندي أسنان تعبانة.

– أهلا وسهلا فيك بأي وقت.

– الله يخليك.

طلب جواز سفر علي. تطلع في الفيزا. كانت ملامحه جادة، منذرة وقال:

– كل شيء تمام. هناك مشكلة واحدة.

خفق قلب علي بقوة وخشي أن يواجه ما يمنعه من اتمام الرحلة التي اعتبرها آخر فرصة وفرها له القدر بمصادفة نادرة.

– الحجز إلى بخارست أوكي. لكن ما عندك أوكي إلى لندن. من بخارست دبر رأسك. المشكلة إنه ما فيني أضمن لك حجز للندن خلال فترة قريبة، علينا ضغط كبير.

لم يهتم علي كثيرا وقال.

– بسيطة.

– موافق؟

– نعم، موافق.

اعتبر علي ذلك خطوة كبيرة، المهم بالنسبة له دخول أوروبا فمن هناك يغدو تذليل المصاعب أسهل، عشرات الحلول تتوفر للمرء بينما لا يتوفر هنا سوى حل واحد: انتظار القدر. بهذه الرحلة سيكون مثل الكثيرين من طالبي اللجوء، الذين غالبا ما يصلون إلى بلد وسيط، ومن ثم يتوجهون إلى مقاصدهم. تسلم غسان مبلغ الرحلة، وحدد تاريخ السفر وساعة المغادرة. حجز التذكرة. وضعها وسط الجواز وناوله بابتسامة وديعة إلى علي الذي ظل يتمتم بكلمات الشكر بارتباك. وقبل أن يخرجا من المكتب قال غسان هامسا:

– الموضوع بيني وبينكم. موفقين إن شاء الله.

في الطريق افترق علي عن مهند وتوجه إلى البريد المركزي. أعطى

الرقم إلى موظف الخط الدولي وجلس على مصطبة ينتظر متلهفا، قلقا. دقائق وسمع صوت الموظف ينادي: لندن. كابينه رقم ٣.

التقط السماعة.

- آلو خولة؟

جاءه الصوت عاليا:

- هلو علي!

وأردفت بغضب:

- هاي وينك؟

ارتعشت يده حين سمع صوتها وهي تعاتبه على تأخره، وشعر بغصة في صدره عندما قالت إنها لم تعد لها طاقة على الصبر. سألته عن أخباره فأبلغها بأنه قادم بعد أسبوع. لم تصدق. تقطع صوتها واضطرب وشهقت من الفرح. ثم سألته عن أسباب تأخره كل تلك الفترة الطويلة بنبرة دامعة قال إنه سوف يخبرها بكل شيء حين يصل. طلبت منه أن يتصل بها قبل يوم من بدء الرحلة.

كان صوتها حزينا مجهدا نائيا كأنه يأتي من خلف الغيوم. أحس كما لو أنها كانت تبكي قبل الاتصال. طمأن نفسه بأن كل شيء سيمضي بيسر. لم يبق سوى أسبوع، أسبوع واحد فقط يفصله عنها.

راح يعد الساعات ويشغل نفسه بتمضية الوقت الراكد الكئيب. قلل ذهابه إلى المقهى كي لا يتعرض للكثير من الأسئلة فكان يبقى في «مأوى التنين» فترات طويلة.

-١٧-

رافقه مهند ورعد وسعاد إلى المطار.

تمنى أن تكون نسرين معهم، أن يراها للمرة الأخيرة لحظة الشروع بهجرته الجديدة. أراد أن يعتذر عن الإحباط الذي سببه لها، عن إهماله ولامبالاته إزاء عواطفها المتقدة. لكنها لم تأت، لم تظهر طوال الفترة الماضية، و لم تزره حتى بعد أن عرفت من سعاد أنه تعرض إلى حادث في المطعم.

أنهت الموظفة إجراءات الوزن وهي تتطلع حولها بعينين غير مستقرتين. كانت تراقب المسافرين أكثر مما تراقب عملها، وعندما اندفعت الحقيبة بشكل آلي خلفها ناولت علي سلمان التذكرة دون أن تنظر إليه. رجع إلى أصدقائه. بدا قلقا إذ عاوده ذلك الشعور الذي انتابه يوم اجتاز حدود العراق باتجاه سوريا، الشعور الذي أنبأه بأن طريق المنفى ربما يقوده إلى حياة شاقة، وعرة، وربما يقوده إلى حتفه. سأله رعد:

– ما بك؟

– خائف، كأني أغادر العراق الآن.

قبل الدخول إلى قسم تدقيق الجوازات سأله مهند إن كان معه ما يكفي من المال، فيما اقترح رعد وهو يغمز بعينه:

– ضع مئة دولار في الجواز عندما تقدمه.

تساءل علي بارتياب:

– صحيح؟

أجاب رعد بنبرة جادة:

– نعم صحيح. تلك هي القاعدة.

فقال علي:

– يعني رشوة؟

وصاح مهند بغضب:

– لا تناقش.

ودّعهم بالقبلات وعبارات الشكر المتكررة، ووعدهم بأنه لن ينسى ما قدموه له، وسيكتب لهم عندما تستقر أوضاعه. دخل القاعة وهو يشد على جواز سفره والبرقية والمئة دولار. نظر موظف الأمن في الجواز وقال متهكما:

– من وين اشتريته؟

– من حي السيدة زينب.

– معك برقية؟

– نعم داخل الجواز.

بسهولة عثر الموظف على البرقية. خطف المئة دولار وألقاها في الدرج المفتوح بجانبه. وقال قبل أن يضع ختم الخروج على صفحة الجواز:

– هات مية تانية للشباب.

نفحه علي سلمان المبلغ وهو يبتسم في داخله كأن كل شيء يسير بشكل طبيعي ووفق القانون. سلّمه الموظف الجواز وقال:

– مع السلامة، موفق.

***

في ذلك الفجر كان الضوء يغمر فضاء مطار بخارست. وهو يهبط من الطائرة أحس علي سلمان أن الضوء يتسلل إلى قلبه ويسري في عروقه فابتهج له، وابتهج لوجوده في ذلك المكان الذي يقرّبه من هدفه. كان المسافرون يندفعون مسرعين إلى نقاط فحص الجوازات ما إن يلامسوا الأرض، أما هو فوقف متمهلا لا يعرف إلى أين يذهب؟ الجواز الذي معه مزور والتذكرة التي في يده تنقصها الموافقة لمواصلة الرحلة إلى لندن. ما يعرفه هو تغيير الطائرة، لكن كيف؟ وأين؟ ومتى؟ حاول أن يطرد الخوف الذي بدأ يربك قدرته على التفكير، أن يُطمئن نفسه بأنه في بلد أوروبي ولديه تأشيرة يستطيع بواسطتها أن يدخله، مثل أي سائح أجنبي، ويبقى في المدينة أياما ريثما يحصل على حجز

جديد إلى لندن بافتراض أن لا أحد يكتشف حقيقة جوازه. وماذا عن خولة؟ ربما تنتظره الآن في المطار فهي تعرف أن الرحلة لم يتبق منها سوى ساعات. لقد أخبرها بتفاصيلها قبل يوم من مغادرته دمشق.

وهو يتجول في أروقة المطار لمح من بعيد لوحة تشير إلى قاعة الترانزيت. كانت تغص بالمسافرين للحد الذي لا يمكن للمرء أن يمشي خطوة واحدة. بدا كل شيء مضطربا كأن حدثا أمنيا وقع فأربك جميع الأقسام والخدمات. فوضى تشمل أرجاء المكان بأسره. كان عليه أن يصل إلى الموظفة في مكتب الخطوط الجوية الرومانية كي يكمل الحجز. لن يحتاج إلى مبلغ إضافي فقد دفع ثمن التذكرة كله، لن يحتاج إلا الموافقة على الحجز إلى العاصمة البريطانية، إلا إلى مقعد شاغر وإنْ كان كرسيا صغيرا إضافيا في طرف الممر. خيّل له أن موظفي المطار وشغيلته يعملون كما يرغبون، فليس ثمة مسؤولون عنهم يتابعونهم ويراقبون أعمالهم ويتحققون من اكتمالها وصدقيتها. حتى الشاشات الالكترونية كانت تعمل باضطراب ملحوظ. كانت معلوماتها تتغير بسرعة. ينبغي أن ينفذ من زاوية ما تمكنه من الوصول إلى مكتب الموظفة. اندس بين الناس ويده على جواز السفر. ومن الفراغات الضيقة بين كبار السن راح يزحف ببطء شديد وبخطوات قصيرة، كل خطوة لا تتجاوز القدم الواحدة، حريصا على أن لا يدفعه أحد ويعيده إلى الوراء. بعد حوالي ساعة كان أمام الموظفة وجها لوجه. سلّمها التذكرة والجواز وهو يرجوها أن تمنحه مقعدا إلى لندن متعهدا بأن يعطيها ما تريد. فهمت ما يقصده، نظرت في عينيه نظرة طويلة فاحصة متحدية غير مبالية بعرضه، ولم تقل شيئا. تناولت جواز سفره بيد بيضاء محمرّة ووضعته في صينية خشبية مستطيلة على يسارها. لحظات وأعادت له التذكرة مع حجز

كامل إلى لندن وبطاقة صعود إلى الطائرة من غير جواز السفر. ظن أنها نسيت أن تعيده إليه فقال:

– الجواز من فضلك.

– تعال بعد ساعة.

من شاشات صغيرة زرقاء مثبتة في أعمدة أو هابطة من الأعلى عرف أن طائرة بخارست – لندن لن تقلع قبل ساعتين فقام بجولة في المكان مبتعدا عن الزحام. رأى سلّما مرمريا عريضا يؤدي إلى مطعم واسع. اشترى قهوة وجلس في زاوية تطل على أرض المطار المبلطة اللامعة بأشعة الشمس التي بدأت ترتفع من مكان ما.

انقضت ساعة فقفز من مكانه ونزل الدرجات مسرعا. وجد الزحام خفيفا والمسافرون ينتظمون في طابور أمام مكتب الخطوط الرومانية. لم يجد الموظفة نفسها بل احتلت مكانها أخرى سريعة الحركة. سألها عن جواز سفره فقالت إنها لا تعرف شيئا عنه. واستدارت لتخدم زبونا آخر. حاول أن يشرح لها فكررت قائلة إنها لا تعرف شيئا عن الأمر، لا يوجد في مكتبها أي جواز. تطلع في الصينية الخشبية. كانت فارغة. عاد إلى التجوال في جنبات المطار بعد أن خفت حدة الضغط البشري. وعندما أصبح الوقت مناسبا ذهب إلى البوابة التي تؤدي إلى الطائرة المتوجهة إلى لندن. وقف مع المسافرين. اعتبر نفسه واحدا منهم، لا فرق بينه وبينهم. أناس يحملون جوازات سفر مختلفة إنما وجهتهم واحدة ومصيرهم واحد. لم يعد خائفا. ها هو يقترب من باب الطائرة يمشي خلف شباب شقر يمسكون بجوازات سفرهم وتذاكرهم. استقبلتهم مضيفة حسناء بابتسامة ساحرة وطلبت منهم بطاقات الصعود إلى

الطائرة، ثم استقبلته مثلهم تماما. دخل الطائرة غير مصدق أن الأمر يجري بتلك السهولة. فتش عن مقعده فتطوعت مضيفة أخرى مرحة نشطة ودلته عليه. جلس وتنفس بعمق محاولا إبعاد أي قلق عنه. أراد أن يبدو طبيعيا. سمع نداءً من مكبر صوت يدعو مسافرا لمراجعة أمن المطار فسيطر عليه الخوف إذ تخيل أنهم سوف يذيعون اسمه ليراجع المكتب نفسه أو مكتب الخطوط الجوية. سيقولون له: ثمة خطأ في التذكرة، أو خطأ في جواز السفر عندها سيعيدونه إلى سوريا على أول طائرة متجهة إلى الشرق الأوسط. ارتجف قلبه وخدرت ساقاه، وأحس بصداع يخترق رأسه. أقلعت الطائرة. وعندما استقرت فوق الغيوم أغمض عينيه ونام.

- ١٨ -

هبطت الطائرة في مطار هيثرو بلندن. كان علي سلمان خائفا مرتبكا. ساقاه ترتعشان. مشى مع المسافرين، الذين جاءوا معه على الطائرة نفسها، باتجاه قسم الجوازات مقتربا منهم كأنه يحتمي بهم. أحس بشيء يعتصر قلبه، حاول أن يشجع نفسه لكن القلق من احتمال إعادته من حيث أتى كان ينهشه. تفرق المسافرون حسب جنسياتهم، فيما أومأ له موظف الجوازات برأسه أن يتقدم. خطا خطوة واحدة مترددة. حثه الموظف بود على الاقتراب من مكتبه. أخيرا نطق علي سلمان تلك الكلمة التي ظل يحلم بها لسنوات:

– لاجئ.

حيّاه الموظف مبتسما وقال:

– أهلا وسهلا. جوازك؟

احتار علي بالإجابة، ثم قال:

– لا أعرف أين جوازي.

سأله الموظف عن اسمه ولقبه وبلده وجنسيته ونهض عن كرسيه

معتذرا وقال إنه سيعود بعد قليل. دخل إحدى الغرف الجانبية. لحظات وعاد حاملا جواز سفر بيده. فتحه على صفحة الصورة وسأل علي إن كان هو جواز سفره فأكد أنه له، ثم سارع إلى الإعلان بأنه مزور.

سأل الموظف:

– هل لك أقارب في بريطانيا؟

– نعم، زوجتي.

– ما اسمها؟

– خولة إبراهيم جميل.

– هل تعرف عنوانها ورقم تلفونها؟

أعطاه العنوان ورقم التلفون، وقال:

– المفروض إنها تنتظرني الآن.

– هل أنت متأكد؟

– لا

قال الموظف وهو يشير إلى مصطبة طويلة:

– انتظر هناك من فضلك.

جلس يحدق في رتل القادمين الطويل وهم يحملون جوازاتهم

المختلفة الألوان والأحجام بأيديهم. وبدا له أنهم لا يحرصون عليها فربما كانت بالنسبة لهم وسيلة سفر عادية يمكن الحصول عليها بسهولة، أما بالنسبة لمواطني بلاده فهي وثيقة مرتبطة بقرار أمني وسياسي، والحصول عليها ليس سهلا، وهي بالنسبة للاجئ قضية حياة أو موت. لم يتوقف سيل المسافرين القادمين من جميع أنحاء العالم، تجار وسياح وطلبة وساسة وزوار، أما هو فلاجئ قادم من بلاد تكره أبناءها وتذيقهم الذل والهوان في كل ساعة، أو تلقي بهم في أتون حرب لا طائل من ورائها. عاد الموظف إلى مكتبه ليواصل عمله في تدقيق جوازات المسافرين وختمها. كان علي يتابعه. ورغم أنه كان مغمورا بالامتنان لحسن المعاملة تساءل في نفسه: «لماذا تركني في منتصف الطريق؟» بعد دقائق انتبه إلى شخص يجلس بجانبه قدّم نفسه على أنه أحد موظفي الهجرة. أعطاه قلما واستمارة كي يبثت فيها المعلومات المطلوبة كالاسم واللقب والجنسية الأصلية، وأخرى عن العائلة والتعليم. وهو يملأ الاستمارة شعر علي بإنهاك شديد. ساعده الموظف على إكمال النواقص، ودققها، ثم قال:

– تفضل معي.

اجتازا حاجز الجوازات ودخلا ممرات متعددة حتى وصلا إلى قاعة صغيرة. أجلسه إلى طاولة وغاب في ممرات أخرى. بعد قليل جاءته امرأة بملامح آسيوية تحمل صينية فيها قدح شاي بالحليب وقطع من البسكويت. وضعتها أمامه بابتسامة حيية وانصرفت. هدأت مخاوفه قليلا وخف اضطرابه. أكل قطعتين من البسكويت وشرب الشاي. لم تكن لديه شهية للطعام بسبب القلق الذي يسيطر عليه. لا يعرف ماذا سيحل به. هل يعيدونه من حيث أتى بعد تلك الرحلة الطويلة؟ مضت

ساعة تقريبا كان تفكيره خلالها منصبا على تلك الفكرة المشؤومة: ترحيله إلى بخارست أو دمشق.

اقتاده موظف آخر خارج المبنى حيث موقف سيارات حكومية ليسلّمه إلى سائق أخذه بسيارة بيضاء إلى مبنى تحيطه الزهور والأشجار. هناك أجروا لصدره فحصا شعاعيا، ثم أدخل على طبيب ليفحصه ويسأله عن التلقيحات التي أخذها في طفولته. عدد له ما يذكره: لقاح ضد الكوليرا، التيفوئيد، الشلل الثلاثي، الجدري. أرجعه السائق بالسيارة نفسها إلى دائرة الهجرة في المطار. أدخلوه في غرفة. كان بين اليقظة والنوم عندما سلمه أحد الموظفين ورقة بترويسة من دائرة الهجرة البريطانية. من هنا بدأت معاملة طلب اللجوء. بلا وعي أدخلها في جيبه. شعر أن اللحظة العصيبة توشك على الانتهاء. وتأكد من ذلك عندما سأله الموظف إن كانت لديه حقيبة. أجابه بنعم فأخذه إلى قسم الأمتعة. لم يعثرا عليها. في قسم المفقودات حرروا له طلبا تضمن معلومات عن البلد الذي قدم منه، خط سير الرحلة، لون الحقيبة ونوعها، وعنوان البيت الذي سيقيم فيه ورقم هاتفه. عندئذ خطر له أن الحقيبة ربما أُنزلت في مطار بخارست.

مضت ساعة أخرى من الانتظار المؤلم قبل أن يعطيه موظف لم يره من قبل ورقة لمراجعة دائرة الهجرة في المطار نفسه بعد أسبوعين، ثم قاده عبر متاهة من الغرف والمكاتب الزجاجية أو المغلقة إلى فضاء الحرية.

***

وقف مندهشا يتطلع في وجوه مئات المستقبلين الذين ينتظرون ذويهم أو أصدقاءهم الوافدين من شتى بقاع العالم على متن طائرات

جاءت بعد ساعات من الطائرة التي أقلته. حاول أن يرى وجه خولة بينهم. كان يرى وجوها متصلة أو متجاورة، وجوها مختفية في عناق حميم، وجوها بعيون زائغة، وأخرى مشرئبة تفتش عمن تحب. كان قلبه ممتلئا بسعادة لا توصف وهو يتلمس طريقه مع المغادرين الذين يدفعون حقائبهم في عربات أو يسحبونها إلى جانبهم أو خلفهم. فجأة انبثقت خولة من بين الحشد ووقفت في طريقه. إنه وجهها، الوجه الذي يعرفه والذي كثيرا ما تأمله ثم ضيّعه أو نسيه. ها هو يعثر عليه من جديد، ها هو يجد بيته وأهله ووطنه. اندفعت نحوه وعانقته، فشم عطرا لم يعرفه من قبل. استرخى وجهها على جانب خده. كان دافئا وناعما كتويج زهرة. ربت على ظهرها ليبعدها عنه قليلا وليحدق في عينيها. كانت متشبثة به بقوة كطفل خائف. انسحبت. أخذت تنشج وقالت إنها تنتظر منذ ساعات. مسكت يده بأصابع قوية متوترة، ومشت إلى جانبه بصمت وهي تنظر إليه من حين لآخر كما لو أنها تريد أن تتأكد من أنه الآن معها فعلا. سألته عن حقيبته فقال إنه فقدها. تذكر جواز سفره، الذي احتفظ به موظف الهجرة، فروى لها ما حصل، فقالت إنها سمعت أن شركات الطيران بدأت مؤخرا بوضع الجوازات المزورة لدى كابتن الطائرة ليسلمها إلى أمن المطار في بلد اللجوء المقصود.

في الطريق إلى بيتها في منطقة ويمبلي لاذت بالصمت من جديد. كانت سعيدة بوصوله فلا تستطيع الكلام، كأن حضوره أخرسها. شبكت ذراعها بذراعه حتى وصلا إلى شقتها عندها أمطرته بفيض من القبلات والدموع والهذيان.

***

أمضيا أياما حميمة هانئة لم يخرجا خلالها إلى عتبة الدار إلا مرة واحدة لاستلام الحقيبة التي أعادتها الشركة الناقلة من بخارست إلى لندن. عقب استرخاء علي سلمان من العناء والقلق والخوف، الذي لازمه طوال الرحلة والشهور التي سبقتها، أخذته خولة في جولة لمشاهدة الأماكن البارزة في المدينة التي كانت زارتها قبلا عند مجيئها: قصر بكنغهام، ساحة البيكادلي، ساعة بيغ بن، مبنى البرلمان، نهر التيمز، لستر سكوير، كوفنت غاردن، وشوارع اكسفورد، أجوار رود، وكوينز واي. كانا ملتصقين ببعضهما كالعشاق الصغار الذين يرونهما في المترو أو المتنزهات. وعندما يشعران بالجوع يتناولان وجبات سريعة من تلك التي تنتشر محالها في كل مكان.

في اليوم المحدد للمقابلة اصطحبته خولة إلى قسم الهجرة في المطار.

سأله الموظف المختص بطلبات اللجوء إن كان بحاجة إلى مترجم. كانت معرفة علي سلمان باللغة الإنكليزية محدودة فأراد مترجما كي تكون إجاباته عن الأسئلة التي ستوجه له دقيقة ومتطابقة. لم تستغرق المقابلة، التي أدارها مترجم سوداني، أكثر من نصف ساعة تخللتها أسئلة عن التاريخ الشخصي والعائلي والانتماء السياسي وأسباب طلب اللجوء. كان الموظف المسؤول رضيا متزنا متعاونا يبتسم لعلي سلمان من حين لآخر كأنه يريد أن يطمئنه ويحثه على عرض إفادته بثقة ودون خوف. في الختام أبلغه بأنه لا يحق له العمل إلا بعد أن يتخذوا قرارا بأمر إقامته أو بعد مضي ستة أشهر على وجوده داخل البلاد.

رافقه المترجم إلى الباب المتصل بأحد فضاءات المطار فسأله علي سلمان عن توقعه بخصوص منحه الإقامة فقال المترجم بطريقة محايدة

إن الاعتقال بدون قرار قضائي أو تهمة أو محاكمة أمر يناقض مبادئ حقوق الإنسان، وربما يكون ذلك سببا لقبول أي إنسان كلاجئ لأنه تعرض للاضطهاد. وعندما أراد علي أن يحصل منه على تأكيد حول إمكانية حصوله على الإقامة اعتذر المترجم قائلا إنه لا يستطيع الحديث بشيء ليس من اختصاصه فالقضية من شأن وزارة الداخلية وتمنى له حظا سعيدا ومضى عائدا إلى المبنى. من جديد هاجمته تلك الفكرة السوداء، فكرة إعادته إلى دمشق أو بخارست. ثم تراجعت عندما تذكر أنه قدم إفادة متوازنة وأجاب عن الأسئلة من غير تناقضات.

أطلع خولة على مجريات المقابلة وسألها إن كان هناك احتمال لرفض طلبه اللجوء وترحيله فقالت إنها بحدود ما تعلمه لم ترفض السلطات البريطانية طلبا للاجئ عراقي. وأضافت: «حتى لو أنها اتخذت قرارا كهذا سنقدم التماسا عبر محام وستأخذ القضية وقتا طويلا عندها سيكون النظام في بلدنا قد سقط ولن نكون بحاجة إلى اللجوء».

وسألها إن كانت جادة بتصورها عن سقوط النظام. أجابت إن ذلك ما تراه القوى السياسية.

سألها ثانية:

– من الذي سيسقط النظام؟

أجابت بنبرة تأكيد:

– الشعب.

قال علي:

– هناك رأي شائع بين الأوساط السياسية مفاده أن الحرب مع إيران سوف تؤدي إلى سقوط النظام، ها هي الحرب مشتعلة و لم يتأثر بها سوى الشعب.

قالت:

– لا أعرف، الموضوع معقد، وأنا جائعة.

كان الوقت ظهرا فاشتريا ساندويشات برغر لحم البقر. أكلاها وهما يمشيان باتجاه البيت. هناك شربا شايا وناما حتى المساء.

-١٩-

مضى على وصول علي سلمان نحو ثلاثة أشهر انصرف خلالها إلى تطوير لغته الإنكليزية فكان يقرأ ما تنشره الصحف، ويتابع أخبار التلفزيون والمسلسلات. نحى خجله جانبا، يسأل الباعة ويتحدث معهم، ويحفظ عشرات الكلمات الجديدة كل يوم، مستعينا بقاموس تهرأ غلافه كان في شقة خولة. لكن ما عطّله وغيّر خططه هو التغير السريع المفاجئ الذي طرأ على شخصية خولة. بدأ ذلك بتذمرها من ضيق الشقة المؤقتة المكونة من غرفة نوم وصالة صغيرة ومطبخ لا يسع لاثنين في بناية من أربعة طوابق. ثم بضجرها الذي راح يزداد كل يوم، انحدر إلى متاهة من الشكاوى التي لا تنتهي، شكاوى من الشقة والمواصلات والوحدة والعراقيين وحتى من الخضار الذي بدأت تراه بلا طعم. كانت تصف الشقة بأنها قفص فيما هو يعتبرها مكانا في النعيم إذا ما قيس بـ «مأوى التنين»، أو النوم على مصطبة في الطريق. وهكذا أخذ سأم خولة وتحويل كل شيء، مهما كان تافها، إلى مأساة يضايقه ويثير أعصابه. وراح يأمل بالحصول على الإقامة كي يبدأ رحلة البحث عن عمل عله يجد فرصة تمكنه من الابتعاد عن البيت وتدفعه خطوة نحو الاقتراب من المجتمع الذي يجهله.

اتصلتْ خولة بقسم السكن في البلدية حول إمكانية إعطائها بيتا

دائميا فقالوا إن عليها الانتظار، فثمة كثيرون قبلها بحاجة ماسة إلى بيت أكثر منها، خصوصا الأزواج الذين لديهم أطفال أو المعاقين أو كبار السن.

ركنتْ إلى السكون. بدأت تنام كثيرا. تذهب إلى السرير في الثامنة مساء وأحيانا قبل ذلك، وأثناء النهار أما أن تواصل النوم أو تصمت. تتحرك داخل الشقة كما الشبح، لا يُسمع لها صوت أثناء الطبخ أو التنظيف. واستمرت تنزل إلى الطابق الأرضي لتتفقد البريد الذي يأتي مرتين الأولى في الصباح والثانية عند الظهيرة، فقد يحدث في أي يوم أن تصل رسالة من البلدية تخبرها بالانتقال إلى سكن دائمي أكبر، أو هذا ما كانت تحلم به، لذلك لم تكن تنتظر أحدا سوى ساعي البريد.

وبسبب إحساسها العميق بالمرارة لم تعد تعرف الفرح حتى عندما حمل لها البريد رسالة من وزارة الداخلية تبلغها بحصولها على الإقامة. لم تُعلِم علي سلمان بذلك، لم تفرح، لم تبتسم حتى. قرأت الرسالة ورمتها على الطاولة بلامبالاة فاطلع عليها مصادفة.

بدأ وضعها النفسي يقلقه ويربكه فأخذ يخرج في الصباح ويعود في المساء كي يوفر لها مساحة أكبر، ويعطيها فرصة للتفكير بموقفها وحياتها لأنه شعر أن مشكلتها أكبر من مسألة شقة ضيقة. ألم يسكنا في شقة ضيقة من قبل؟ وفي بلد ليس فيه التسهيلات والخدمات كالتي توفرها الدولة هنا؟ ثمة سبب آخر، ربما هو الحنين، ربما هو المنفى الذي تسميه الغربة التي وجدت نفسها وحيدة فيها. قالت مرة إنها في دمشق لم تشعر بالغربة. حاول أن يبحث معها سبب تغيرها فرفضت. أحس أنه أخفق في تبديد وحدتها أو جعل منفاها أقل وطأة وضراوة. لماذا يلقي

اللوم على نفسه؟ هل هو السبب في ما يحصل لها؟ كيف فقدت، مرة واحدة، كل طاقتها على التحمل؟ لماذا تخلت عن واحد من أكثر مبادئها رسوخا هو التفاؤل بالمستقبل؟ وتتابعت اسئلته ليل نهار: ما الذي غيّرها بمثل هذه السرعة؟ كأن شخصية أخرى حلت محل شخصيتها الأولى فغدت امرأة لا يعرفها الأمر الذي عجز عن تفسيره ووضعه أمام اختبار عسير.

تجول في المتنزهات والحدائق التي يؤمها الجميع: طلاب وربات بيوت وعشاق وعجائز ورياضيون. وهو يسير في الممرات بين الأشجار يتذكر بغداد، يوم كانت جميع الساحات في الشوارع الرئيسية حدائق عامة ترعاها أمانة العاصمة وتخصص لها فلاحين يهتمون بسقايتها وتنسيق شتلاتها وزهورها. كانت العوائل تقصدها عصرا في أيام الصيف لقضاء الأماسي هربا من الحر القاسي في البيوت. تتناول النسوة والأطفال الكعك والحلويات والمرطبات ويشربن الشاي، وعندما تنسحب الشمس وتغيب تهب نسمة منعشة مباغته فيحل مساء هادئ ناعس. وجاء زمن لم تعد فيه الساحات حدائق، واختفت المتنزهات وحلت محلها أبنية حكومية رسمية، أما التي نجت من ماكينة الدولة الجارفة فتحولت إلى مقار لأجهزتها الأمنية، للمخبرين أو لأعضاء المنظمات التابعة للحزب الحاكم بعد أن نصبت فيها خياما زودت بمكبرات صوت تبث ليل نهار أغنيات لتمجيد السلطة.

نزل من الحافلة عندما شاهد ملاعب لكرة القدم، ثلاثة ملاعب متجاورة مشغولة بمباريات لفرق مدرسية في يوم أحد. فتية بملابس زاهية يلعبون بحماس فوق أرض خضراء معشبة بكرة حقيقية وأحذية جلدية، بينما هو ورفاقه كانوا يجمعون الخرق ويربطونها حتى تصبح

بحجم كرة صغيرة فيتداولونها بأقدامهم الحافية التي تكون عرضة للصدمات وشظايا الزجاج والمسامير. لا يوجد أحد من أترابه سلمت قدماه من الإصابة. حتى أن كثيرين منهم يتوقفون عن اللعب لأسابيع أو شهور إلى أن تشفى جروحهم. كان كاظم لعيبي واحدا منهم، لاعبا بارعا، بمقدوره مراوغة فريق الخصم كله وبلوغ الهدف. لكنه لم يكن يملك حذاء فاعتاد اللعب حافيا في الساحات بين البيوت أو خارجها. ولأنه ساحر في أدائه كان الذين يدهشهم بمهاراته يتوقعون وصوله إلى فرق الدرجة الأولى ويتساءلون: كيف سيلعب بقدميه الحافيتين؟ هل سيواصل اللعب حافيا أم سيتعود على لبس الحذاء؟ وهل سيحافظ على قدراته السحرية؟ كان هو نفسه يقف حائرا أمام تلك الأسئلة، يبتسم ويقول: «والله ما أدري». وحدثت المفاجأة عندما رُشِح كاظم لعيبي للعب في صفوف المنتخب الوطني وخاض مباريات عدة فشاهدوه على شاشة التلفزيون وهو يرتدي حذاء رياضيا أسود.

في البداية كان علي سلمان يعزو مظاهر الرفاه والخدمات والتسهيلات في مناحي الحياة إلى الوفرة المالية، ومع مرور الأيام راح يسأل نفسه: أليس لدى العراق ما يكفي من الموارد لبناء الملاعب وتنظيم الحدائق وتطوير أنظمة متقدمة للصحة والتعليم؟ السبب لا يكمن في المال، السبب هو أنهم يحتكمون إلى العقل بينما نحن نحتكم إلى الحماقة، إنهم يحتكمون إلى السلم ونحن نحتكم إلى العنف، دورات من العنف والعنف المضاد. كل حزب يتوعد الآخر بالاعتقال والتصفية حتى قبل وصوله إلى السلطة.

رجع إلى البيت من إحدى جولاته فوجد خولة غاضبة متوترة. كان وجهها كدرا وشعرها منفوشا. سلّم عليها فصرخت بوجهه قائلة إنه غير

مهتم بها قدر اهتمامه بجولاته بينما هي حبيسة الزنزانة. ضربت على رأسها وهمت بتمزيق ملابسها. حاول تهدئتها فدفعته. أعد الشاي. صب لها قدحا فلم تشرب. وبعد صمت طويل قالت بصوت جاف:

– اسمع، لم أعد أتحمل، يجب أن ننفصل. أريد أن أعيش وحدي.

لم يسألها عن السبب. وفكر أن يتريث في الجواب كي يعطيها فرصة كافية لاتخاذ القرار المناسب خاصة وأنها بدت غير معنية بجواب سريع إذ قالت تلك الجملة وذهبت إلى المطبخ.

بعد أيام قليلة كررت الطلب، فقال:

– غدا أبحث عن غرفة.

و لم يمض وقت طويل حتى عثر على الغرفة رقم ٩ في حي أكتن تاون.

-٢٠-

بعد الظهر ذهب إلى البريد لصرف شيك، متمهلا ساهيا عن كل ما يحيطه، تُحلِّقُ أخيلتُه في سماء الماضي. فجأة جفل واهتز قلبه لما يشبه صوت انفجار. التفت فرأى تلميذا يضحك جذلا وفي يده كيس ورقي ممزق كان نفخه وضغط عليه بقبضته أمام مجموعة من زملائه الذين خرجوا من المدرسة للتو وملأوا الشارع حياة وصخبا، مبتهجين فرحين بمشاكسة بعضهم، متمتعين بحريتهم دون خوف من أحد. كانوا أنيقين، يرتدون زيا موحدا مكونا من بنطال رمادي، وسترة زرقاء، وقميص أبيض وربطة عنق حمراء.

تذكر علي ظهر ذلك اليوم البعيد عندما جاءت سيارة كبيرة لتنقل خمسين تلميذا من مختلف صفوف المدرسة الابتدائية إلى أحد المستشفيات. كان من بينهم التلميذ الجديد موسى محمد لفتة. لم يكن يبدو على أي منهم المرض إذ كانوا يلعبون في الساحة، قبل مجيء السيارة، فيثيرون الغبار والضجيج ما اضطر معاون المدير إلى أن يخرج إليهم أكثر من مرة ليأمرهم بخفض أصواتهم لأنهم يؤثرون على زملائهم الذين كانوا يواصلون الدراسة داخل الصفوف.

التحق موسى بالمدرسة بعد أن هاجرت أسرته من أحد أهوار العمارة

في أوائل ستينات القرن الماضي وسكنت خلف السدة، بمنطقة الميزرة، قرب المستنقعات والبرك المائية التي تربض فيها الجواميس. كان نحيفا جدا يشبه قصبة من قصبات موطنه، ولونه أسمر مشوبا بصفرة. في اليوم الأول له في المدرسة أجلسه المعلم بجوار علي سلمان في الصف السادس الابتدائي. وبسرعة نشأت صداقة بين التلميذين عززها سكن عائلة موسى على طريق علي سلمان فأصبحا يذهبان ويعودان معا.

وبعد نحو شهر قدم إلى المدرسة فريق طبي. داروا على الصفوف الستة وأخذوا عينات من بول التلاميذ في أنابيب زجاجية وغادروا.

بعد أسبوعين طلب المدير من بعض التلاميذ أن يبلغوا أولياء أمورهم بالحضور إلى المدرسة لأمر هام. وعندما اجتمع المدير بالأهالي قال لهم إن أبناءهم مرضى بالبلهارسيا وإن المدرسة سوف تشرف على علاجهم في أحد المستشفيات وذلك يستغرق بين سبعة إلى عشرة أيام.

رن جرس المدرسة فخرج التلاميذ إلى الساحة. نظمهم معاون المدير، بمساعدة المعلمين، في صفوف أمام السيارة التي وقف بجوارها، في خط طويل، التلاميذُ الذين سوف يذهبون إلى المستشفى. ألقى المدير كلمة قصيرة في وداعهم وقال إن الفرّاش سوف يرافقهم وإن معاون المدير سوف يتابع أوضاعهم مع السلطات الصحية. بعد ذلك صعد التلاميذ برفقة الفرّاش إلى السيارة.

من موقعه في طرف الساحة تابع علي صديقه موسى وهو يتقدم نحو المقاعد قبل الأخيرة ليجلس عند النافذة. تحركت السيارة، لوّح له موسى بيده، واستمر يلوح حتى اختفت السيارة في الطريق العام.

في الأيام التي تلت بدأ علي سلمان يشعر بالوحدة وهو يحدق بالمقعد الشاغر إلى جانبه. لاذ بالصمت، وكف عن اللعب وقت الاستراحة. وعندما فكر بأن غياب صديقه قد طال ذهب لمقابلة معاون المدير وقال له إن زملاءه المرضى تأخروا في العودة، فأفهمه المعاون بأنهم يخضعون إلى العلاج وعما قريب سيعودون ويستأنفون دراستهم. وقال علي إنه خائف على زميله موسى فرد المعاون بابتسامة أبوية: «لا تخف، تعال بعد نهاية الدوام وسوف أدعك تكلمه بالتلفون».

***

رن جرس نهاية الدرس الأخير، وهرع التلاميذ إلى منازلهم ما عدا علي سلمان الذي تأخر متعمدا فانشغل بجمع كتبه وترتيبها في حقيبته المعدنية. غادر الجميع وساد السكون بناية المدرسة. وقف عند باب غرفة المعاون. تردد في طرقه لأن أصوات المعلمين كانت تصله بوضوح. وبعد حوالي نصف ساعة خرجوا ليستقلوا سياراتهم. أما الذين لا يملكون سيارات فطلبوا من زملائهم أن يوصلوهم إلى الشارع الرئيسي.

دق الباب ودخل. أعطاه المعاون رقم تلفون المستشفى. لقّنه كيفية الاتصال وخرج ليدخن. أدار علي الرقم وانتظر حتى جاءه صوت موظف الاستعلامات فطلب منه التحدث مع الطالب موسى محمد لفتة. لم يصدق عندما رد موسى عليه. ارتعش الصوتان من الفرح فهي المرة الأولى التي يتحدثان فيها عبر التلفون. قال موسى إنهم مازالوا يتلقون العلاج وإن إدارة المستشفى لم تبلغهم بموعد إخراجهم. تحدثا عن الدراسة والواجبات البيتية وغياب معلم الرياضة لكسر في ساقه، ثم ودّعه علي سلمان وأعاد التلفون إلى موضعه.

غادر غرفة المعاون قبل المساء بقليل متوجسا من الظلام فذلك هو الوقت المفضل للكلاب الشرسة لمهاجمة المارة بدون أن تطلق أي نباح أو هرير. مشى بسرعة كي يتفادى العتمة، لكنه حين قطع ربع المسافة هيمن الغروب. تلك اللحظة اقترب منه رجل على دراجة هوائية. جاوره وضغط على زر المنبه فانطلق صفير أيقظ في قلب الفتى ولعه بالدراجات الهوائية والحلم العسير باقتناء واحدة. لم يكن ذلك منبها فقط، بل دعوة للركوب. تردد علي في القبول فأخذ الرجل يغريه بسرعة الدراجة وقوتها. ليس هناك مكان يمكن الجلوس عليه سوى الأنبوبة الأمامية الممتدة بين المقعد والمقود. ساعده الرجل على الصعود. وعندما استقر في جلسته أمام السائق انطلقت الدراجة فوق الجادة التي أحدثتها أقدام المارة منذ سنين أسفل السدة الترابية. لم يستطع علي مقاومة إغراء المنبه الذي أمامه فامتدت إبهامه إلى الزر المثبت جوار المقبض فانبعث نغم جذاب. أحب ذلك الصوت وافتتن به فهمس الرجل في أذن علي وهو يحتضنه من الخلف:

– حلو؟

أجابه علي بصوت راعش بأنه حلو فتقدم الرجل أكثر ليلتصق بظهر الفتى الذي تسلل إليه الخوف. ظل صامتا يدفع جسده المتخشب إلى أمام محاولا الابتعاد عن حضن الرجل الذي هبطت يده إلى الجانب الأيمن من مؤخرة الصبي ولامستها فشعر بالذعر. تململ في جلسته وهو يحس بثقل أنفاس الرجل وهي تلامس رقبته ساخنة متلاحقة، وقال برجاء:

– عمي أنزلني. وصلت بيتنا.

وجاءه صوت زاجر خشن:

– لا، ما وصلت. لا تستعجل. لماذا ترجف؟

كيف عرف أنه لم يصل إلى بيته بعد؟ من دلّه عليه؟ ألح علي كي ينزله صاحب الدراجة الذي راح يسرع أكثر فأكثر دون أن يولي أي اهتمام لنفور الفتى وخوفه وارتجافه. وعندما أحس علي بشيء ما قوي كاد يخترق ظهره صرخ:

– أنزلني، أنزلني.

تجاهله الرجل.

بدأت الظلمة تحتشد في الطريق وثمة حزمة من ضوء شاحب تسقط على الأرض من مصباح الدراجة الذي يعمل بواسطة داينمو ثبت على حافة الإطار الخلفي. كان الضوء الواهن يتأرجح مع اهتزاز الدراجة واضطرابها.

– أنزلني، أنزلني.

تلفتَ حوله. لا أحد هناك كي يستنجد به. لم يتوقف الرجل، بل راحت يده تعبث بمؤخرة الفتى، ثم احتضنه بيد ليقود الدراجة بيد واحدة. دب الرعب في القلب الصغير فاخذ يبكي ويولول ويهم برمي نفسه حتى أنزله الرجل في منتصف المسافة وهو يطلق عليه البصاق وسيلا من الشتائم المقذعة.

ظل علي يعاني من الشعور بالانتهاك حتى استأنف موسى الدراسة

بعد خمسة عشر يوما من الانقطاع. عاد الصديقان بعدها إلى رفقتهما السابقة، لكن علي لم يستطع نسيان ذلك الخوف الذي تسبب به صاحب الدراجة، وأصبح يرتاب في أي شخص يعرض عليه مساعدة، وغدا انطوائيا، قليل الصداقات وقليل الكلام.

-٢١-

في صباح مشمس دافئ قرر علي سلمان أن يتجول ليكتشف الأماكن التي حول سكناه فهو لم يذهب أبعد من مكتب البريد والبقاليات المجاورة، حتى أنه لم يصل إلى محطة مترو أكتن تاون القريبة. مشى في شارع بوبس لَيْن، ثم انعطف في شارع فرعي ضيق قاده إلى متنزه غنرزبري. توغل في الممرات تحت الأشجار العالية التي تبعث فيها الريح حفيفا متقطعا. شم رائحة ياسمين أو شبيهة بها، فتوقف واستدار محاولا العثور على النبتة أو الشجرة التي تطلق تلك الرائحة العطرة. عجز عن اكتشاف مصدر ذلك الأريج الأبيض الدمشقي الأخاذ فاستمر يطوف في ممرات المتنزه ممتلئا برائحة الحب والذكريات.

لم يكن هناك الكثير من المتنزهين. في المنحنى البعيد رأى فتيات بملابس رياضية يهرولن، وثمة امرأة تلاعب كلبها، وعاشقين صغيرين يقبلان بعضهما، فيما كانت سحب بيضاء تتفرق في السماء وتتلاشى.

جلس على مصطبة يتأمل العصافير والطيور. رأى السناجب تتسلق الأشجار بلمح البصر ثم تهبط وتمرق أمامه خائفة متوجسة فتذكر القنافذ التي كانت أمه ترسله لاصطيادها في البرية كي تعد من عظامها شرابا لمعالجة الأطفال المرضى.

مرة أخفق في اصطياد أي قنفذ، ومع ذلك انتظر، وقام بمحاولات عديدة لاستدراجها من مكامنها. وبعد أن ئيس تماما قرر العودة إلى البيت. كان الوقت شتاء. فجأة هبت رياح شديدة البرودة تغلغلت في عظامه. كان يرتدي دشداشة فوقها بلوزة صوفية قديمة. بدأ يركض كي يبعث الدفء في جسده الذاوي فيما تجمعت فوقه سحب سود منخفضة. ركض بكل طاقته وعندما تعب خفف سرعته ليستعيد قواه فرأى نفسه أمام قاسم المجنون. كيف انبثق هذا الرجل المخيف بملامحه المحتقنة وعينيه الجاحظتين في تلك الفلاة الخالية؟

كان من عادة المجنون أن يجتاز السوق الوحيدة في منطقة خلف السدة ثم شوارعها الرئيسية القليلة كل يوم خاصة وقت العصر وعند الغروب، بعد أن تخلى عن الأزقة الضيقة التي لا يعرف مسالكها، فهناك يهاجمه الأطفال والصبيان ويهربون إلى بيوتهم التي غالبا ما تكون جزءا من تلك الأزقة، فلا يستطيع اللحاق بهم إذ يلجأون إلى أحضان أمهاتهم أو آبائهم. ولم يعرف أحد أن جولته لا تقتصر على تلك الأماكن، إنما تشمل البراري المحيطة بالبلدة.

كان علي سلمان واحدا من أولئك الفتيان الذين يستفزون قاسم المجنون ويرشقونه بالحجارة عندما يمر أمامهم رافعا طرف دشداشته إلى ما فوق ركبتيه فيظهر أحيانا، وبلا وعي منه، عضوه التناسلي. فينفجر الأولاد بالضحك والإشارات والنكات والأهازيج فيما تدير النسوة رؤسهن إلى الناحية الأخرى وابتسامة حيية تعلو وجوههن يخفينها برفع الفوطة فوق شفاههن.

كان وجه قاسم المجنون نحيفا، عظامه بارزة ورأسه حليق بدون

غطاء حتى في الشتاء، وعيناه حمراوان تزدادان حمرة حين يتبعه الأولاد والصبيان وهم يهزجون: «هيه، هيه مخبّل لابس عباة أمه....». يستدير نحوهم، يركض وراءهم في محاولة للإمساك بأحدهم وفمه ممتلئ بالزبد والسباب. تلك اللحظة هي أشد ما يخيف الأولاد لأنهم قد يصبحون فريسة لأسنانه ويديه ورجليه، ولن يلومه أحد بسبب غياب عقله. وعندما تثار أعصابه إلى حدودها القصوى يقذفهم بالأحجار التي تكون إصاباتها دقيقة وبليغة. لكن ما يميزه، أكثر من أي شيء آخر، هو أنه لا ينسى الإساءة ويحفظ وجوه الذين يستفزونه أو يرمونه بالحجارة، وينتظر الساعة التي يظفر فيها بأحدهم كي يقتص منه. ألم يقتطع نصف أذن خضر بن رزوقي بعضة واحدة؟ الكل يتذكر ذلك.

كان علي سلمان يرتجف من البرد القارس وهو أمام قاسم المجنون وجها لوجه. ليس هناك أحد سواهما في تلك الأرض المنسبطة القفر. لماذا هو خائف؟ كيف سيعرف المجنون أنه هو الذي يقذفه بالحجارة؟ مئات الأولاد يلاحقونه كل يوم هل بوسعه أن يتذكر وجوههم كلها؟ اطمأن إلى تلك الفكرة ومشى بهدوء وعيناه مثبتتان في عيني المجنون الذي كان يتقدم منه بأعصاب هادئة متزنة. لأول مرة يراه علي سلمان بذلك الهدوء والاتزان. غالبا ما يراه غاضبا يرتعش من الغضب، متوتر الأعصاب، أزرق الشفتين. من يدري؟ قد يتغير وينقض عليه في أية لحظة ويهصره بين يديه الحديديتين. ها هي عيناه تقدحان لهبا. توقف علي في مكانه لا يعرف ماذا يفعل أمام الضربة الوشيكة، الضربة التي سوف تطرحه أرضا. إلى أين يهرب؟ هطل المطر بقوة. وخلال ثوان غمر الماء جسم علي النحيل وملابسه المهلهلة كما غمر قاسم المجنون الذي استمر صامتا، يتقدم بخطوات بطيئة ثابتة. وعلى نحو غير متوقع

خلع سترته البالية والقاها على كتفي علي وشد طرفيها حول جسمه كي يقيه من البرد ومضى كأنه لم يفعل شيئا. بهدوء وجل التفت علي إلى الخلف فرأى قاسم المجنون يغذ خطاه التائهة في البرية تحت المطر.

***

فتح باب الشقة فوجد رسالة له من سليم عبد الحسين ابن أخته حليمة. كانت مفاجأة مذهلة فهو متعطش لسماع أخبار العائلة. كتب سليم إن خالته مديحة تسلمت الرسالة والمئتي دولار، أوصلهما رجل لا يعرفونه. وقال إنها فرحت بالرسالة وراحت تقبلها وتبكي. وأضاف: بعد موافقتك على الخطبة تزوجت خالتي مديحة من علوان عزيز. قبل ذلك استدعتها دائرة الأمن العامة للتحقيق وسألوها عن البلد الذي تقيم أنت فيه وعنوانك ورقم تلفونك. آخر مرة طلبوا منها أن تحثك على العودة قائلين إن «البلاد تتعرض إلى مؤامرة إمبريالية كبيرة وتحتاج إلى كل الطاقات المبدعة في عملية البناء الاشتراكي».

أما هو ففي كل مرة يستدعونه، يمضي لديهم أسبوعا أو أكثر، يستجوبونه خلاله حول علاقة له مع الشيوعيين، لكنه ينفي ذلك ويقول إنه لا يرتبط بأي حزب ويرفض الانتماء إلى الحزب الحاكم. وقال سليم إنه جزع من الاستدعاءات، وعيون المخبرين التي تترصده في كل مكان يذهب إليه، وأمضه الخوف من أخبار التعذيب في الأقبية السرية فقرر أن يذهب إليهم بنفسه.

وصل إلى مديرية الأمن العامة وشرح قضيته ثم انتظر نحو ساعتين قبل أن يدخلوه على أحد المسؤولين. روى سليم قائلا: ما إن رآني المسؤول حتى نهض يحييني. استغربت وخشيت أن يكون ذلك فخا.

دعاني للجلوس وهو يقول: أهلا بسليم، تفضل، أهلا بابن أخت علي. وقدم نفسه لي على أنه رشيد. ظننت أن هذا الاستقبال يخفي وراءه شيئا خطيرا كأن يطلب مني التعاون مع المخابرات. رويت له ما حدث لي خلال السنوات الماضية والاستدعاءات والتحقيقات التي لا تدعني أعيش بسلام فرد قائلا:

– بسيطة.

ثم سأل عنك، عن أحوالك، وعن ظروفك. فأجبته بأني لا أعرف شيئا عنك لأني خشيت من أن يستخدمني ويفرض علي شروطا ومهمات أمنية.

أدرك قلقي وقال:

– لا تخف. لا أقصد سوى السؤال عن خالك علي، المهم إذا اتصل بكم سلّموا لي عليه.

– صار.

قلت ذلك وأنا أفكر: كيف يسلّم مسؤول أمني على شخص ملاحق داخل البلد وخارجه. ولم أنتظر طويلا حتى أعرف إذ نهض من كرسيه الدوّار واتجه نحو خزانة زجاجية. تناول ملفا وقال إنه ملفي وأراني اسمي مدونا على الصفحة الأولى. ناولني إياه وقال:

– مزقه.

خفت أن ألمسه. عرف خوفي فمزقه بنفسه ورماه في سلة بجانبه، ثم تناول ملفا آخر قال إنه ملف خالتي مديحة فمزقه، وقال:

– مع السلامة. إذا اتصلت بخالك علي أو اتصل بك قل له صديقك رشيد يسلم عليك، وهو يتذكرك دائما.

وقبل أن أغادر مكتبه سألته عن ملفك فقال إن ذلك ليس من صلاحياته.

وتساءل سليم في رسالته: من هو رشيد؟ لم اسمع بصديق لك بهذا الاسم. وأضاف أنه استفسر من علوان عزيز فقال له:

– يجوز رشيد المصور بقطاع ٤٩!

***

تذكر علي سلمان صديقه رشيد.

قبل أن يترك الدراسة ويعمل في محل للتصوير في منطقة الثورة الأولى كان رشيد ينفق كل مصروفه على التقاط الصور لنفسه في ستوديوهات الميدان والباب الشرقي. مرة جاء لزيارة علي في بيته ومعه كاميرا قديمة قال إن أخاه الأكبر اشتراها له بمناسبة نجاحه في امتحان البكالوريا للصف الثالث المتوسط. كان ذلك آخر امتحان له لأنه ترك الدراسة نهائيا وانصرف لهوايته الوحيدة: التصوير.

التقط رشيد صورا لصديقه لكنها لم تظهر أبدا. سأله علي عنها فقال إن «الفيلم احترق». وبعد أن أتقن المهنة في محال التصوير راح يحمل على كتفه كاميرا مع فلاش بطول ذراع ويدور في المقاهي وحول ساحات كرة القدم وتجمعات الشباب أثناء الأعياد والأفراح وحفلات الزواج والختان.

وفي الوقت الذي دخل مرحلة الاحتراف بدأ انشغاله الكلي بالفتيات. كان موضع حسد الكثيرين بسبب علاقاته المتعددة بالطالبات اللائي كن يزرن المحل الذي يعمل فيه ويقفن أمامه لالتقاط الصور. وكان يروي عنهن حكايات تلهب خيال الشبان المحرومين من لمسة يد امرأة فكانوا يصدقونها ويتمنون ترك الدراسة والعمل في ستوديوهات التصوير. ومع أنه كان جريئا معهن إلا أن واحدة تسكن في منطقتهم (قطاع ٤٩) لم يستطع أن يفاتحها بحبه، حتى أنه هجر الأخريات كلهن قبل أن يتحدث إليها ويتعرف على مشاعرها. كان اسمها إلهام. وكما فعل محمد هادي، الذي كان يطلب من علي سلمان كتابة رسائل إلى محبوبته زهرة، سأله رشيد أن يكتب له رسالة إلى إلهام. استغرقت كتابة الرسالة، وهي من صفحة واحدة، ثلاثة أيام. وكما في كل مرة اجتهد علي سلمان في أن يطعّم الرسالة بأبيات شعرية وأقوال مأثورة عن المرأة والحب والسهاد. أوصلها رشيد إلى إلهام التي ما إن قرأتها حتى قبلت حبه لها، معبرة عن إعجابها الشديد بشخصيته وأسلوبه في إنشاء الرسائل. وخلال شهور قليلة تزوج منها. وبعد فترة ترك محل التصوير نهائيا إذ انتمى لحزب البعث الحاكم عقب استلامه السلطة للمرة الثانية عام ١٩٦٨ وتطوع في الشرطة السرية، فقطع علاقاته بمعارفه في مدينة الثورة بمن فيهم صديقه وكاتب رسائله.

***

ظل علي سلمان يفكر بشقيقته مديحة لساعات ويشعر بالشفقة والأسى عليها فقد كانت في نظره امرأة معذبة قدرها الكفاح المتواصل. وتذكر اليوم الذي تعرضت فيه لحادث وهي صغيرة. لكنه لم يشاهد الحادث ولا أمه مكية الحسن ولا والده سلمان اليونس الذي عرف به

عندما عاد إلى بغداد إذ كان يعمل في معامل الطابوق بكركوك ويأتي لزيارة أهله كل أسبوعين. كانت مكية الحسن تجلس في باحة الحوش تحت سقيفة القصب عندما سمعت صوتا ملحاحا يأتي من الشارع يردد أن مديحة دهستها دراجة بخارية. خرجت راكضة فلم تجد أحدا سوى آثار دم يتحلق حولها أولاد ونسوة في طريقهن إلى السوق. أخبرنها بأن سائق الدراجة البخارية، الذي دهس مديحة، حملها مباشرة إلى مستشفى الطوارئ ساعده في ذلك أحد المارة. وقالت إحداهن إن الطفلة كانت تنزف لكنها لا تعرف من أي مكان من جسمها. أرسلت علي ليخبر عبدالحسين الذي خمنت أنه سيكون في بيته وجلست تبكي محاطة بنساء وبنات الجوار. بكت صبيحة معهن لفترة قصيرة ثم انسحبت بعيدا منصرفة لأكل الأحجار دون أن تخشى مراقبة أحد. مسرعا عاد علي ليخبر أمه أن عبد الحسين هرع فورا ليلتحق بسائق الدراجة إلى مستشفى الطوارئ.

وقت العصر جاء سائق الدراجة البخارية حاملا مديحة بين يديه يرافقه عبدالحسين. عرفته مكية الحسن في الحال. إنه جعفر أحد أقرب أصدقاء عبد الحسين وقد جاء برفقته أكثر من مرة لتناول الشاي وهما في طريقهما لقضاء أمر ما. كان يقول دائما إن مذاق الشاي الذي تعده مكية الحسن على الفحم يظل في فمه لأيام. أسرعت ممتقعة الوجه لتتلقف ابنتها منه لكن عبد الحسين منعها. اعتذر جعفر عن الحادث وهو ينزل الطفلة ليضعها على بساط تحت السقيفة. طمأنها عبدالحسين أن الحادث لم يتسبب بكسور لا في الأطراف ولا في الرأس إنما هناك جروح عميقة في الفخذين. قال ذلك وهو يكشف عن ساقي الطفلة اللتين كانتا ملفوفتين بطبقة سميكة من الشاش الأبيض. قال جعفر إنه بعد أسبوعين

سيأتي ليأخذها إلى المستشفى ليسحبوا من فخذيها خيوط الغرز بعد التئام الجروح، وأضاف أنه مستعد لقبول أي دعوى حكومية أو عشائرية. قالت مكية الحسن إنها تسامحه فهو ليس غريبا بل هو بمثابة أخ، ومع ذلك فالأمر منوط بوالد الطفلة سلمان اليونس عندما يعود بإجازة.

كانت مديحة هادئة، شاحبة الوجه، اقترب علي منها بعينين دامعتين ومسك يدها فابتسمت له. كان متأثرا وحزينا لكن وصول العروس المسيحية بسيارات التاكسي برفقة الأغاني والأهازيج والطبول أنساه الحادث.

ففي ذلك العصر تجمع حشد غفير من الأولاد، لم يحدث مثله في تاريخ خلف السدة منذ تأسيسها، في فسحة صفت حولها كراس مستأجرة بشكل دائري تحت حلقة من المصابيح التي سحبت إليها الكهرباء من أسلاك الشارع. توقفت سيارات التاكسي أمام بيت عبيد شناوة، الفرّاش في مديرية المساحة، لتهبط عروس سافرة بفستان أبيض، على عكس عرائس خلف السدة اللائي يرتدين العباءات السود دائما في أفراحهن وأحزانهن. بدأ الأولاد أهازيجهم وهم يتقافزون كالأرانب: «يا عبيد طفي الكلوب خدها يشع ويه الثوب». تابع الأولاد العروس وهي تدخل بيت عبيد شناوة محاطة بحشد من النساء في الجوار وأقارب العريس. استمروا يهزجون ولم يتوقفوا إلا وقت تناول طعام العشاء حيث تزاحموا في الصفوف الخلفية للمدعوين بانتظار دورهم. بعد أن أنهوا طعامهم من الرز والمرق ولحسوا أصابعهم أو مسحوها بدشاديشهم انضموا إلى أصدقاء عبيد شناوة وأقربائه وهم يزفونه إلى عروسته. أدخلوه الغرفة وأغلقوا الباب وهم يهتفون: «عبيد رايد رادته عايف بنات ولايته». وعندما خرج عبيد شناوة إلى الحفل، بعد حوالي

نصف ساعة، بدشداشته البيضاء ردد الأولاد بتلقين من الكبار: «طيّر فلسها أبو عكال». ثم شكّلوا مجاميع راحت تتناوب بإطلاق الإهزوجة: «طيّر فلسها أبو عكال». هدأت الأصوات ثم سكتت عندما بدأ المطربون الغناء. استمر ذلك إلى ما بعد منتصف الليل. وعندما غادروا استلم شباب من المدعوين الطبول والدفوف وأخذوا يغنون ويرقصون. ومن حين لآخر كان يمكن سماع ترديد خافت منفرد هنا وهناك: «طيّر فلسها أبو عكال».

تلك الليلة سهرت خلف السدة بشقيها العاصمة والميزرة حتى الصباح. وقيل أن خبر زواج عبيد شناوة من المسيحية وصل إلى مشارف محافظة ديالى. وظل الناس يتساءلون على الدوام، رغم النهاية المأساوية لذلك الزواج: كيف وافقت امرأة مسيحية بغدادية على الزواج من عبيد شناوة؟ ما الذي وجدت فيه؟ المال؟ المنصب؟ السكن؟ كيف تمكن من إقناعها وجلبها طائعة راضية للعيش معه في غرفة طينية ضمن بيت الأسرة الذي تحجزه البرك المائية الآسنة والوحول لفترة طويلة من العام؟ وبسبب من قصر مدة الزواج والكتمان الذي أحيط به، ليس فقط من قبل العريس بل من جميع أفراد أسرته لم يتمكن أحد من التوصل إلى معلومات عن الزوجة التي كانوا ينظرون إليها بمهابة بسبب ديانتها وسفورها وسكنها في قلب المدينة. كل امرأة مسيحية، بالنسبة لهم، امرأة جميلة ما دامت بيضاء البشرة. يومها قالوا إن تلك الفتاة، التي يتمناها كثيرون، ينبغي أن تتزوج طبيبا أو مهندسا أو طيارا، أما أن تتزوج الفرّاش عبيد شناوة فذلك فوق طاقتهم على التصديق.

– «عجبة» – قال سوادي حميد الذي رفض أن يشارك في العزف على طبله، كما اعتاد في كل فرح، دون أن يعلن السبب.

– «المرة تخبلت» – قالت حليمة عندما جاءت إلى بيت أمها لتطمئن على شقيقتها مديحة.

خلال الأيام التالية لم يتوقف الحديث عن حكاية الزواج وقد تنبهت بعض النسوة إلى أن العروس لم يرافقها أحد من عائلتها كالأم أو الأخت. هكذا ظلوا يقلّبون الأمر مندهشين ومتهكمين من الزوج البطر الذي سبب لهم صدمة محزنة. فخلال أقل من أسبوعين غادرت العروس بيت الزوجية إلى غير رجعة. وقد شاهدوها وهي تمشي إلى جانب عبيد شناوة الذي قرر أن يوصلها بنفسه. كانت ترتدي عباءة هذه المرة وليس معها سوى صرة ملابسها. ولم يعرف أحد ما الذي قصده بمرافقتها، هل هو احترام لها أم أنه أراد أن يسلمها إلى أهلها؟ لكن إشاعة سرت بين السكان تقول إن عبيد شناوة رفضها لأنه اكتشف في ليلة الدخلة أن لديها ست أصابع في قدمها اليسرى. ولم يقتنع كثيرون في خلف السدة، رجالا ونساء، بهذه الحجة التي اعتبروها واهية بل مضحكة، وقال بعضهم إن عبيد شناوة بفعلته تلك إنما يفتقر إلى الرجولة وإلى الإيمان بإرادة الرب الذي يخلق عباده كما يشاء. كما أن هذه الإشاعة أثارت أسئلة كثيرة حول السبب الحقيقي الذي يدفع رجلا إلى إعادة زوجته إلى بيت أهلها بعد أيام من الزفاف.

أشفق سكان خلف السدة على العروس، وتابعوها بقلوب كسيرة وهي تسير خلف عبيد شناوة وعيناها في الأرض خاصة عندما خطر لهم أن أهلها قد يرفضون استقبالها لأنهم، ربما، لم يوافقوا على ذلك الزواج منذ البداية.

-٢٢-

ذلك اليوم لم يخرج علي من الغرفة رقم ٩ وأمضى معظم النهار مستلقيا في السرير رغم سعادته بخبر زواج مديحة من علوان عزيز. شعر بنوع من العطف الأمومي عليها. وهو في رقدته الطويلة تذكر يوم ذهب معها للتسجيل في المدرسة الابتدائية.

ففي عصر أحد الأيام كان الأولاد، وبينهم علي سلمان، يلعبون لعبة عنيفة في الشارع، وكان والده يتفرج عليهم. مر أحد جيرانه الذي انتهى ذلك اليوم من تسجيل أولاده في المدرسة. قال لسلمان اليونس إن الوقت حان ليدخل ابنه المدرسة بدلا من اللعب في الشوارع من الصباح حتى المساء. رد سلمان اليونس قائلا إن ابنه لم يلعب في الشوارع دائما بل كان يتعلم القرآن وقد ختمه قبل فترة. وتساءل الجار: «وبعد ختم القرآن جاء اللعب في الشوارع، إرسله إلى المدرسة ليحصل على شهادة، لا تدعه يصبح مثلك».

لم يكن سلمان اليونس متحمسا لدخول ابنه المدرسة لأنه يريده أن ينخرط في سوق العمل بعد سنتين أو ثلاث، فهو لا يرغب في أن يضيّع عمره بانتظار أن يتخرج ابنه ويحصل على شهادة ومن ثم وظيفة، لذا كلما جاءت سيرة المدرسة يقول إن المهنة أحسن من الشهادة. كان

مؤمنا بأن الغاية من إنجاب ولد هي إعداده للعمل كي يساعد والديه في كبرهما على تحمل مصاعب الحياة ونفقاتها. وكم كان سعيدا عندما رأى ابنه وقد تعلم القراءة والكتابة وختم القرآن لدى الكتّاب فذلك في نظره أقصى ما يطمح له أب مثله.

مع تكثف العتمة كف الأولاد عن اللعب وتفرقوا متجهين نحو بيوتهم. مر علي سلمان بجانب والده فحرضه الجار على أن يطلب منه إدخاله المدرسة بدلا من اللعب.

قبل النوم تحدث علي سلمان إلى أمه بشأن تسجيله في المدرسة فقالت إنها تخاف عليه إنْ ذهب وحده فاقترح عليها أن يأخذ معه أخته مديحة ليسجلها معه. وافقت الأم دون أن تبلّغ زوجها لأنها كانت متأكدة من رفضه، ودون أن تعرف أن مديحة لم تبلغ بعد السن التي تؤهلها لدخول المدرسة.

مع شروق شمس أحد الأيام قاد علي أخته عبر طرق المستنقعات الموازية لسكة الحديد قاصدين مدرسة اختارتها الأم بناء على معلومات جمعتها من معارفها. ومع أنها تدرك تماما أن المدرسة بعيدة لكنها فضلتها لأنها تقع في بقعة برية ليس فيها شوارع للسيارات يتعين عليهما عبورها كل يوم، لذا فإنهما في مأمن من أي حادث سير يرعبها مجرد التفكير فيه. قبل ذلك كانت ترفض ذهاب ابنها إلى المدرسة خوفا من أن يتعرض لحادث دهس كما تعرضت مديحة.

مسترشدا بوصف الطريق الذي قدمته والدته وصل علي سلمان برفقة أخته إلى المدرسة التي بنيت حديثا بعد مطالبة من عمال السكك الساكنين في مُجمَّعات متفرقة على امتداد خط بغداد – كركوك القديم وانتفع منها سكان خلف السدة بشقيها العاصمة والميزرة.

في باب المدرسة وأمام الفرّاش رفضت مديحة الدخول للتسجيل. قالت إنها خائفة. حاول علي إجبارها، أخذت تبكي فطردها الفراش. طلب منها أخوها أن تنتظره ريثما يسجل اسمه. وقفت على مبعدة فيما دخل هو إلى باحة المدرسة الخالية إذ كان الطلاب في قاعات الدرس. توجه إلى غرفة المدير بحسب تعليمات الفرّاش. طرق الباب ودخل وقال للمدير إنه يود التسجيل في المدرسة. رحّب به المدير وسأله عن ولي أمره فقال إن والده يشتغل في معامل الطابوق وليس لديه وقت كي يأتي معه. ثم سأله المدير:

– هل معك جنسية؟

– لا

– بيان ولادة؟

لم يعرف علي ما هو بيان الولادة فظل ساكتا. فقال المدير:

– تعال غدا مع ولي أمرك، أبيك، عمك، أخيك، مع بيان الولادة.

انصرف علي سلمان.

عند الباب الرئيسي لم يجد الفرّاش ولا مديحة. دار حول المدرسة. سأل فتيات كن يجمعن الأشواك في أكوام كبيرة بفؤوس لها مقابض طويلة فقلن إنهن لم يشاهدن أية طفلة في تلك الأنحاء. طغى عليه إحساس بالذنب لفقدانه أخته إذ اعتبر نفسه السبب في ضياعها فقطع الطريق إلى أهله راكضا. عندما وصل لم يسأل عنها لأنه وجدها تلعب في باحة الدار. صرخ في وجهها لاهثا وأراد أن يضربها لكن أمه وقفت حاجزا بينهما. أخبر والدته بما قاله المدير فوعدت أن تحدث عبد الحسين

بذلك. وبالفعل قبل أن ينقضي النهار وافق عبد الحسين على أن يصحب علي سلمان.

في الصباح التالي سلّم عبد الحسين مدير المدرسة بيان الولادة وجرى تسجيل علي سلمان في الصف الأول الابتدائي.

خلال الأيام الأولى لاحظ المعلم أن الطالب الجديد متقدم على زملائه في القراءة والكتابة والحساب فسأله أين تعلم ذلك فأجابه: عند الكتّاب. تحدث المعلم إلى المدير بشأنه فاستدعاه المدير إلى غرفته إذ أراد أن يتأكد بنفسه. بعد أن اختبر علي سلمان قال المدير إن مستواه التعليمي أكثر من مستوى الصف الأول لذا سوف يرقّى إلى الصف الثاني مباشرة. عندئذ أبلغت مكية الحسن زوجها سلمان اليونس بذلك. فرح فرحا شديدا و لم يعترض على ذهاب ابنه إلى المدرسة.

***

كانت المدرسة الابتدائية تقع بين محطة قطار بغداد - كركوك، ومُجمَّع من بيوت قليلة لعمال السكك، ومعامل الطابوق التي تشرف على برية واسعة. وكانت القطارات الرائحة والغادية تتوقف أمام تلك المحطة للتزود بالماء ونقل الركاب.

عند نهاية الدوام عصرا لا يمكن لعلي السيطرة على وخز معدته من الجوع، ذلك أن نصف رغيف الخبز المطلي بالدهن والسكر، الذي تزوده به أمه، لا يكفي لساعات الدراسة التي تبدأ في الثانية عشرة ظهرا وتنتهي في الرابعة أو الخامسة عصرا. كانت سلطات التعليم اعتمدت نظام الدوامين لسد النقص الحاصل في أعداد المدارس، أحدهما صباحا

والآخر ظهرا، على أن يتبادل التلاميذ هذا النظام كل ثلاثة أيام، فالذي كان دوامه صباحا في أول الأسبوع يكون دوامه ظهرا في نهايته. وثمة مدارس لجأت إلى تثبيت نوع الدوام دون تغيير، ومنها مدرسة علي الذي كان من نصيبه الدوام ظهرا، لذا فهو يخسر وجبة الغداء إذ عليه أن يغادر البيت في الحادية عشرة صباح كل يوم.

طوال سنوات المرحلة الابتدائية التي قضاها في تلك المدرسة البعيدة عن بيت أهله كان يتمنى اقتناء دراجة هوائية لتختصر له المسافات في متعة تفوق خيال والده سلمان اليونس الذي لم يستجب لتحقيق تلك الأمنية فهو يرى الدراجة وسيلة للعب وإهمال الدروس وتضييع الوقت والشجار مع الآخرين، كما أنه يعتبر المسافة بين البيت والمدرسة قصيرة، ثم هناك الحاجة الدائمة للتصليح والعناية فانتشار المسامير وشظايا الزجاج في الأرض يجعل إطارات الدراجة عرضة للعطب في أي لحظة.

كان علي يحسد الطلاب الذين يملكون دراجات هوائية فهم يصلون إلى بيوتهم ويتناولون طعامهم فيما هو لا يزال يسير بخطى منهكة. أمام الجدار الذي يسند التلاميذ دراجاتهم الهوائية المختلفة عليه يتوقف كل يوم، فيتأمل ألوانها وأحجامها، ويحلم بركوب إحداها لتطير به فوق تلك البراري المحيطة بالمدرسة أو على الطريق الطويل الترابي الذي تمنعه الجواميس المتوحشة من المرور فيه. سيكون بوسعه قطع المسافة بين المدرسة والبيت بدقائق والتخلص من الكلاب الشرسة التي تنهش كل من يقترب منها أو من ديار أصحابها أسفل جانبي سكة الحديد. إنه غالبا ما يمشي بمحاذاة السكة الحديد لكنه يهبط إلى الأسفل عندما يقترب قطار يعلن عنه، من مسافة بعيدة، صفيرٌ قوي.

صادف انتهاء دوام ذلك اليوم مع وصول القطار إلى المحطة. كان

علي متعبا ومعدته خاوية. وجد نفسه أمام عربة فارغة فصعد إليها بصعوبة. لم تكن عربة ركاب بل هي من ذلك النوع المخصص لنقل الجنود أو السجناء أو البضائع. تحرك القطار فشعر علي بالانتشاء تاركا لجسده الضئيل حرية الطوفان في فضاء العربة، والإصغاء إلى السير الناعم فوق الحديد الساخن. في تلك اللحظة الحلمية نسي أن القطار لا يتوقف قرب بيتهم. إذن سيأخذه بعيدا إلى المحطة القادمة. أين تقع المحطة القادمة؟ لا يعرف. ما يعرفه هو أن الطريق سيطول، وسيصل إلى البيت ليلا ويتعرض للأسئلة والعقاب. كيف استقل القطار؟ كيف أعمته الرغبة المتفجرة بالصعود إلى العربة؟

خفف القطار من سرعته وبدأ يسير سيرا بطيئا. ها هو يقترب من باب الشيخ. كان علي يجهل أن في باب الشيخ محطة هي آخر موقف على ذلك الخط. خشي أن يستعيد القطار سرعته السابقة ويأخذه إلى مكان أبعد مما تصور، إلى مكان لا يعرفه، لذا قفز من العربة إلى الأرض. انفتحت حقيبته المعدنية وانتشرت كتبه ودفاتره. جمعها وأغلق الحقيبة، وحين مشى شعر بألم في قدمه عند الإبهام.

أخذ الألم يزداد كلما توغل في طريق عودته. وصل مع حلول الظلام مجهدا وجائعا. انهالت عليه الأسئلة من أمه وأبيه عن أسباب التأخير. كان الخوف من العقاب يمنعه من الإجابة ويدفعه إلى التلعثم والتردد. خلعت أخته الكبرى حليمة حذاءه أمام الوالدين المتشنجين فشاهدا قدمه المغمورة بالدم. غسلتها ولفتها بخرقة. وحين سأله والده عما حدث روى له كل شيء، وإنْ باختصار وبكلمات متناثرة، إذ كان يتوقع ضربة على رأسه مع كل كلمة ينطقها، لكنه فوجئ بأن أحدا لم يضربه أو يعاقبه بحرمانه من الطعام كما جرت العادة. انسحب والده

كأنما غضبه، وقدمت له أمه صحنا من الرز واللبن. تناول طعامه على عجل وهو يغالب النعاس، وسرعان ما استسلم للنوم.

صباح اليوم التالي استيقظ على ألم شديد في قدمه. كانت متورمة محاطة ببقع زرقاء. أمرت مكية الحسن ابنتها حليمة أن تأخذه إلى المستوصف في منطقة القصر الأبيض. حاول أن يدوس على الكعب فقط وهو يمشي متكئا على كتف أخته. لم يقدر على مواصلة السير بتلك الطريقة فحملته على ظهرها. كان ثقيلا رغم ضآلة جسمه ونحوله ما يضطرها إلى التوقف في الطريق لاهثة متقطعة الأنفاس. تستريح قليلا ثم تمشي، وحين تعجز عن حمله تماما تنزله وتدعه يسير خطوات ثم تعود إلى حمله. لم تكن تعرف أن الرحلة ستكون شاقة إلى هذا الحد وإلا لكانت طلبت من أمها أن ترافقها لمساعدتها.

دخلت المستوصف منهكة فجلست على أول مقعد في غرفة الانتظار. حان دورهما فدخلا على الطبيب. كشف على القدم وهو يسأل عن سبب الإصابة. وضع على الجرح مرهما أسود ولفه بقطعة شاش وقال لحليمة إذا لم يتحسن خلال يومين عليها أن تجلبه مرة ثانية، وسلّمها تقريرا موجها إلى المدرسة عن حالة أخيها كي لا تعتبره الإدارة متغيبا. رقد علي في البيت ثلاثة أيام و لم تتحسن قدمه بل ازدادت سوءا فرجعت به حليمة إلى المستوصف لكن برفقة أمها هذه المرة لتعينها على حمله. فحص الطبيب القدم من جديد فرآها متورمة أكثر. عالجها بأبرة في الفخذ وبالمزيد من الدهن الأسود، وأعطاه حبوبا مهدئة للألم حفرت عليها عبارة «عراق مجانا»، توصف لجميع الأمراض يومذاك. أمضى علي أياما في الفراش بعدها بدأ الجرح يلتئم وأصبح قادرا على المشي لكنه ظل يعاني منه لفترة ليست قصيرة.

-٢٣-

كان ممددا على السرير بين اليقظة والنوم مستندا بظهره إلى الحائط عندما انتبه، لأول مرة، إلى صورة متكررة لأفعى مرسومة على الشرشف الأخضر الذي جلبته له خولة في الأيام الأولى لإقامته في الغرفة رقم ٩. طوال الفترة الماضية كان يلقيه فوق اللحاف أو يفرشه على السرير لكنه لم ير صورة الأفعى. لقد ظل دائما غارقا في تأمل أماكن بعيدة، موغلة في البعد، وأزمنة تتداخل أحيانا للحد الذي تبدو فيه بدون حدود فاصلة.

حدّق في الشرشف. أطال التحديق فتراءت له صور الأفاعي وهي تزحف وتتلوى ثم تختفي ليكتشف بعد ساعات أنها مثبتة على القماش، مجرد رسم لا يعني شيئا.

مضت أيام متصلة كأنها ليل واحد أو نهار واحد، لم يطل خلالها على الحديقة خلف السلالم الحديدية الخارجية، ولم يذهب لشراء ما ينقصه من المحال القريبة، فيما ظلت نافذة غرفته مغلقة وستارتها مسدلة حتى في الصباحات المشمسة النادرة. وهو في سكونه التائه سمع وقع أقدام فوق الدرجات. خيّل إليه أنها أقدام ساندرا. ثمة نقر على الباب. قفز ليفتح. لم يكن هناك أحد.

مرة، وقت الغروب، أيقظه رنين التلفون من شروده فهرع إليه متلمسا طريقه عبر جدران الغرفة العائمة في الظلام.

– نعم....

جاءه صوت امرأة:

– آلو... علي؟

– أهلا، تفضلي.

– كيفَك؟

– زين، الحمد لله.

– عرفتني؟

صمتَ قليلا. ربما هو صوتها، ذلك الجرس العذب العميق!

نطق اسمها مترددا:

– نسرين؟

– أيه نسرين.

– شلونچ؟ شاخبارچ؟

ردت بنبرة عتب:

– الحمد لله، منيح إنك عرفتني.

بدا صوتها أكثر عمقا ورقة في الظلام.

– ولو يا نسرين؟

قالت:

– شو ما بدك تشوفني؟

– ياريت. بس وين أشوفك، بيني وبينك بلاد؟

– أنا هون بلندن.

– صحيح؟ ما معقول؟

أعطته عنوان الفندق الذي تقيم فيه ورقم غرفتها، وقالت قبل أن تغلق الخط:

– ناطرتك. لا تتأخر.

أحس بنشاط مفاجئ مفرح راعش لم يعهده منذ أن جاء إلى هنا. أضاء المصباح. اغتسل. حلق ذقنه وارتدى ملابسه على عجل وهو يفكر بسبب مجيء نسرين إلى لندن! تذكر أنها عثرت على عمل في شركة خطوط جوية عربية كما أخبرته سعاد برسالتها. وفكر بلوعة: هل أن الزيارة من أجله؟ من أجل أن تراه؟ هل هي زيارة عمل أو سياحة؟ نزل الدرجات راكضا، وانعطف باتجاه محطة قطار أكتن تاون.

***

كانت الساعة الثامنة مساء عندما وصل إلى الفندق الفخم. اندهش

من إمكانية نسرين المالية. وتساءل إنْ كان باستطاعتها الإقامة في فندق كهذا؟ طلب من موظفة الاستقبال إخبار نسرين بوصوله واختار مقعدا مقابل المصعد المطل على قاعة واسعة براقة توزعت فيها بانتظام كراس وطاولات مربعة منخفضة وأرائك للاستراحة والانتظار، وفي الفسحات والزوايا وضعت نباتات وزهور. أبعد ذهنه وبصره عن كل شيء وتعلقت عيناه بباب المصعد.

ظهرت نسرين بين مجموعة من النزلاء فنهض لاستقبالها. ثمة شيء ما تغير فيها أضفى عليها جمالا آخر نضرا ثريّا. لو لم تخبره بأنها في هذا الفندق لما ميّزها بين عشرات الجميلات اللائي كن يخطرن أمامه ويتوزعن في أروقة وطوابق المبنى. اتجهت نحوه. قبّلته في وجنتيه وعانقته. كانت معطرة بالياسمين فنفذ الأريج إلى دمه. جلست كأميرة في المقعد المقابل. قالت وهي تتطلع فيه بشوق.

– كيفَك؟ منيح؟ شو أخبارك؟

– ماشي الحال.

ذهل أمام روعة ابتسامتها وفتنة أسنانها البيضاء الدقيقة.

– إنتِ كيفك؟

– منيحه، الحمد لله، الحمد لله.

أخبرته بأنها تعمل مضيفة في شركة خطوط جوية عربية، وإنها تقيم في المقر الرئيسي للشركة خارج سوريا، وشاءت الصدفة أن تكون في رحلة عمل على متن طائرة إلى لندن على أن تبقى في الفندق حتى

عصر الغد ثم تعود. حاول إخفاء إحساسه بالإحباط من سبب الزيارة وقصرها. سألها عن سعاد ورعد ومهند. قالت إنهم بخير وهي تتصل بسعاد دائما لكنها لم ترها منذ فترة. وأضافت إنها أخذت رقم تلفونه منها وهي التي أخبرتها بانفصاله عن خولة.

أبعدت خصلات من شعرها عن خديها وقالت:

– ايه، كيف العزوبية؟

– ماشي الحال.

اكتفى بهذا الجواب واكتفت بذلك السؤال خوفا من أن يكشف الخوض في التفاصيل رغبة، ولو طفيفة، منه بالعودة إلى زوجته الأمر الذي لا تريد أن تسمعه مطلقا، بل تبغضه. قالت بشكل مباغت:

– وجهك شاحب!

زّم شفتيه و لم يجب بشيء.

أخذها في جولة في حي هاي ستريت كنزنغتون. ودّ لو يمسك يدها أو يلقي بذراعه حول كتفيها لكنه لم يجرؤ لأنها كانت تمشي إلى جانبه متعمدة أن تفصلها عنه مسافة متر. دعاها إلى مطعم في شارع فرعي.

قالت له بعد أن اختارت طعامها:

– بتتذكرني؟

– طبعا.

– وبتفكر فيّ؟

– أكيد.

صمتت قليلا ثم قالت:

– بعد ما انتهت علاقتك بزوجتك شو ناوي تعمل؟

أجاب مازحا:

– أتزوجك.

وأردف قائلا: صايرة تجنني، دخيل الله أنا.

ابتسمت. لحظات وتغيرت ملامحها، امتقع وجهها، وقالت بغضب هامس:

– بجنن؟ دخيل الله ها! كنت بفكر فيك ليل نهار وببكي. لو تعرف قديش بكيت! لقيت في البكي تعويض للخلاص منك. بتتذكر يوم بكيت بين أديك؟

رفعت كفيه وقربتهما من وجهها ثم أنزلتهما بعصبية وهي تنظر في عينيه. قالت:

– العمى شو كنت مايع وثقيل.

تساءل بنبرة استسلام:

– ألا تعذريني، كنت متزوجا؟

– .....

في الشارع شبكت يدها بيده. كانت يدها لينة دافئة. ضغط على أطرافها فسحبتها نترا. توقفا عند باب الفندق. انتظر أن تدعوه إلى غرفتها إذ اعتقد أنها لاتزال تحبه. كيف توصل إلى مثل هذا الظن؟ لم تُظهِر نسرين ما يوحي بأنها ترغب فيه. وسرعان ما أدرك خطأ تصوره عندما طلبت منه أن يأتي صباح الغد ليأخذها إلى وسط المدينة فهي تريد التعرف على معالمها. قبّلته من خديه ببرود ومضت نحو البوابة الرئيسية للفندق.

***

استلقت على السرير الوثير تحدق في السقف وتفكر به. كانت قد لاحظت جفافا في شفتيه فعزت ذلك إلى حاجته للقبلات. ثم ضحكت بسخرية من ذلك التعليل. كانت في دخيلتها مفتونة به وتتمناه، لكنها في أشد لحظاتها ولهاً تتذكر ذلك اليوم الذي تركت وجهها كحمامة بين يديه وبكت حتى امتلأت راحتاه بالدموع لشعورها بالإذلال من إهماله لها. كم انزعجت من سلوكه الذي كانت تراه باردا ولامباليا. ومع ذلك لامت نفسها على قسوتها ورأتها غير مبررة فهو لم يقل إنه لم يكن يحبها إنما كان متزوجا وهي تعرف تلك الحقيقة. كان أمام أحد أمرين إما أن يقبل عروضها الغرامية المغامرة أو يتركها، فاختار أن يتركها ويعيش إلى جانب خولة. الآن، وهي في استرخائها المشحون بالعواطف المضطربة، والرغبات المحبوسة، أشفقت عليه وعلى نفسها، وقررت أن تنسى ما وصفته الجانب المظلم من الماضي، غدا ستقول له كلاما جميلا وسوف تغازله وتعيده إليها، وستطلب منه أن يغني لها في الحدائق والطرقات.

***

مهتديا بخريطة المترو وبدليل «أي تو زد» أخذها إلى ساحتي البيكادلي وتفالكر سكوير ثم قصر بكنغهام، تماما كما فعلت خوله معه إثر وصوله إلى هنا. أخرجت كاميرا من حقيبتها وسألت أحد المارة أن يصورهما قرب النصب التذكاري للملكة فكتوريا. طوقت خصره بذراعها فشعر بها قريبة منه. استردت الكاميرا وأخذت تلتقط بنفسها أو بمساعدة السياح الكثير من الصور، ومع كل لقطة كانت تلتصق به حتى تلامس ذراعُه وركَها أو نهدها، أو تهب نسمة دافئة من أنفاسها على وجهه فيتسلل لهب جارح إلى عروقه. دارا حول النصب التذكاري ليدخلا في شارع «ذي مول». وضع ذراعه حول ظهرها. وبدون أن يدري ترك يده تهبط إلى ردفها. أدرك أنه ارتكب خطأ فأسرع إلى سحبها. قالت محتجة:

– ليش قمت إيدك؟ من زمان ما حدا حط إيده هنيك.

أخذت يدَه وأعادتها فوق ردفها فاطمأن إلى أن هناك فرصة للقاء حميم. متى؟ ينبغي عليها أن تكون في الفندق بعد الظهر فطائرتها تعود إلى الشرق الأوسط مساء. تناولا وجبة الغداء في مطعم بيتزا، ثم دخلا حي سوهو، وتجولا في كوفنت غاردن. كان يمشي بطيئا فتتقدم عليه خطوتين أو ثلاث خطوات وهي تتطلع في محال الملابس والإكسسوارات والحقائب. وفي كل مرة تجده خلفها فترجع إليه وتسأله:

– تعبان؟

– شوية.

حانت الساعة الثالثة فقالت:

– خدني ع الأوتيل، طاقم الطيارة يغادر بعد ساعة.

بدأ أمله يتلاشى مع كل دقيقة تمر فيما كان يشعر بحاجة عميقة إليها.

وكما في الليلة الماضية وقفا أمام الفندق. قبلته ببرود على خده وقالت بصوت حاولت فيه إزالة أي أثر لانتصارها:

– بعرف إني خيبت أملك؟

أرادت أن تضيف: «لكنك تستحق هذه المعاملة. إني أثأر لنفسي منك»، لكنها أحجمت.

كان لذلك الموقف وقع مأساوي عليه، فتسمر في مكانه محاولا التغلب على الشعور بالخذلان. لم يعد أمامه أي أمل، لم يعد أمامه سوى الخيبة. كاد يبكي. أحس أنه ضعيف، أطرافه مشلولة وقلبه يتشظى. لم يكن ضعيفا عندما طرحت خوله عليه الانفصال كقرار نهائي، بل على العكس كانت لديه القوة الكافية للمواجهة وعدم الاستسلام. وشيئا فشيئا تحول الإحساس بالوحدة إلى نوع من السرور والرضا لما آلت إليه علاقته بها.

اندفعت نسرين هائجة نحو مدخل الفندق ثم توقفت. التفتت ونظرت إليه. كانت تهم بأن ترفع ذراعها بتلويحة وداع عندما جرفتها أعداد كبيرة من السياح الذين نزلوا من قافلة سيارات متجهين إلى قاعة الاستقبال.

***

لم تهنأ في رحلة العودة، وأمام زميلاتها تذرعت بالصداع. كانت تشعر بتأنيب الضمير لطريقة تعاملها معه، وكانت تدرك إنها لا تزال تحبه، لكنها لا تريد أن تعترف بذلك وتفصح عنه بسهولة إلا عندما تتأكد من أنها ثأرت لنفسها وأنه تلقى العقاب المناسب. ثم أحست بندم شديد لأنها ضيّعت فرصة للابتهاج بغرام سابق، ووعدت نفسها أنها في الرحلة القادمة سوف تستجيب لرغباتها الدفينة المتأججة ولنداءاتها السرية المكبوته، و لم يخطر في بالها أنها لن تراه ثانية أبدا.

-٢٤-

تناهى إليه صوت مفتاح يدور في باب الشقة، ثم سمع خطوات داخلها. توقع عودة ساندرا من السفر فنط من السرير كالسنجاب. ومن باب غرفته الموارب رآها تجر حقيبتها. مغمورا بموجة من الفرح خرج للترحيب بها. كان شعرها مدلهما صاخبا كأنها اجتازت عاصفة، وكان وجهها، الذي لوحته شمس الشرق، تغطيه مسحة حزن، غير أن جسدها ظل كما هو فتيا يزهو بحيويته وطاقته واعتداله. سلّمت عليه. تمنى لو يفتح ذراعيه ويعانقها. سألته عن أحواله وكيف مضت الأيام السابقة. أفلتت الحقيبة واتجهت نحو أصيص زهورها فوجدته نديا. شكرته على رعايته له دون أن تطلب منه ذلك، ووصفته بأنه إنسان عطوف ورائع. سألها عن صديقها مارتن فقالت بنبرة أسف إنهما اختلفا في نهاية الرحلة، وعندما وصلا إلى لندن قرر قطع علاقته بها والسكن، مؤقتا، مع أحد أصدقائه.

– وماذا ستفعلين؟

أجابت بصوت تسرب إليه نغم كئيب:

– لا أعرف. ربما يعود عن قراره. أفكر بالبحث عن عمل.

ثم قالت وهي تمسك مقبض حقيبتها:

– اعتذر، أنا متعبة، أراك فيما بعد.

***

صباح اليوم التالي أطلت عليه كفرح مباغت. كانت نشيطة مشرقة وثمة بريق يشع من عينيها اللتين تنافسان الكواكب. سألته عن بريدها فدعاها إلى شرب كوب من الشاي. رحبت بسرور. جلست على الكرسي الذي جلست عليه خولة في زيارتها الأولى والأخيرة. ناولها حزمة من الرسائل بمظاريف بنية وبيضاء. بدت غير متشوقة لمعرفة مضامينها. ظن أن ذهنها منشغل بعلاقتها بمارتن. تأكد له ذلك حين قالت، بعد أن احتست الشاي برشفات متباعدة هادئة لكنها كافية لترطيب شفتيها البلوريتين، إنها تعتقد أن مارتن اتخذ الخلاف الأخير معها حول شؤون الرحلة ذريعة لقطع علاقته بها. الخلاف أعمق من ذلك، بدأ منذ فترة طويلة لكنه ازداد حدة قبل قدوم علي سلمان للسكن في المُجمَّع بأيام. كانت الرحلة محاولة لتصفية سوء التفاهم الذي وقع بعد أن فقدت وظيفتها عندما أُغلقت الشركةُ التي تعمل فيها معلنة إفلاسها قبل عام، فيما استمر مارتن يعمل الأمر الذي وضع كل الأعباء المالية عليه. حاولا مرات عدة إهمال تلك الخلافات والبدء من جديد بحلول مبتكرة، بدت واقعية للوهلة الأولى، غير أنها ما لبثت أن فقدت فعاليتها التي أثبتتها في الأيام الأولى. وقالت إنها سعت جاهدة للحصول على عمل لكن الأمر ليس سهلا.

سألته عن وضعه فأخبرها بأنه لاجئ لم تحسم مسألة إقامته بعد، وأنه انفصل مؤخرا عن زوجته. عبرت عن أسفها لذلك فرد عليها قائلا إن

الانفصال حل عندما يغدو الاستمرار في العلاقة بين اثنين مستحيلا. قالت:

– نعم، هذا صحيح، وربما يكون حلا مثاليا.

تلقفت أحد المظاريف قبل أن يسقط من يدها وقالت:

– أنت من العراق أليس كذلك؟

– نعم.

استطرد قائلا إنه ينتظر الحصول على الإقامة بنفاد صبر كي يبدأ البحث عن عمل فالجلوس في الغرفة يجعل الحياة سقيمة لا تطاق، ويحيل العمر إلى رماد. لم تعلق ساندرا. وفكرت بصعوبة الحصول على عمل وبالتشابه بين وضعيهما بخصوص الشريك، الآخر، الحبيب. قالت: «يبدو أن على المرء أن يكافح مدى الحياة». ارتشفت القطرات الأخيرة من شايها. نهضت وهي تقول: «الكلام معك جميل، ولكن لدي الكثير الذي ينبغي أن أفعله». استأذنتْ وخرجت فيما ظلت كلماتها معلقة كالندى في فضاء الغرفة وصوتها يرن كالأمواج في قلبه المتوقد الظامئ.

***

كان مستلقيا على السرير يحدق في العتمة، يصغي إلى أصوات الماضي وهي تجوس بين أزقة خلف السدة وشوارع بغداد ومدينة الثورة ودمشق. حاول أن ينهض ويتطلع في احتشاد الظلام بين الأشجار وراء النافذة المطلة على الجانب الخلفي لكن جسده لم يطاوعه. تلك الليلة

أحس بشيء ما يدب في عظامه فيوهن حركته. لم يعرف بالضبط ما كان يحدث له. العرق يتصبب منه، وإعياء يدفعه إلى ملازمة السرير، يتقلب فيه متلظيا بجسم ثقيل وأعماق ملتاعة ذاوية. لقد أعياه التفكير بالحب، وعذّبه جحيم المنفى، وأنهكته خيبة الأمل وتركته طريح الفراش.

في لحظة السكون الغامر تلك تذكر ما كانت تقوله أمه مكية الحسن للنساء اللائي يجلبن لها أطفالهن المرضى لمعالجتهم بالأعشاب ويسألنها عن علامة الشفاء. روت لهن قائلة إن علي عندما كان صغيرا مرض ذات مرة. ارتفعت درجة حرارته فأخذتْ تغذيه بشراب أعدته من أعشاب هندية، وتبرِّد جبينه بكمادات مبللة، وتضعه في المهد عاريا. في اليوم الثالث أضناها الخوف لأن الطفل لم يُظهِر أي تحسن وقررت أن تأخذه إلى الطبيب في الغد، وطلبت من سلمان اليونس أن يستعد لمرافقتها. أمضت النهار كله جالسة قرب المهد. وعند الغروب قفزت من الفرح وصاحت على زوجها أن يسرع ويرى بنفسه. هرع نحوها. وقبل أن يصلها هتفت: «علي سيشفى». سألها عما يجعلها تعتقد بذلك فأشارت إلى عضو الطفل. كان منتصبا. قالت إن هذه علامة على شفاء قريب. وبالفعل مع شروق شمس اليوم التالي استيقظ الطفل سليما معافى.

تسللت يده إلى عضوه فوجده هامدا منكمشا بحجم ثمرة بلوط.

مع تسرب ضوء الصباح إلى الغرفة أراد أن ينهض من السرير. أزاح شرشف الأفاعي بقدمين واهنتين. متشبثا بالجزء الحديدي من السرير قام بصعوبة. فتح الباب. أراد أن يستنشق المزيد من الهواء. مرت ساندرا في طريقها إلى الحمّام. اقتربت منه:

– هل أنت بخير؟

أسندته بجسدها وقالت:

– أنت مريض، سأتصل بالإسعاف.

رفض وفضل البقاء في الغرفة قائلا إنه يعاني من تعب، مجرد تعب وسيزول. مشت معه. خشيت عليه من السقوط فسحبته ليتكئ عليها. أدخلته الغرفة وجلسا على أرضيتها متجاوريْن مستنديْن بظهريهما إلى السرير. وضعت رأسها على كتفه. اقترحت أن تأخذه إلى الطبيب. لم يجبها بل تحدث بكلام متصل باللغة العربية عن النهايات: نهايات الليل، نهايات النهار، نهايات المخلوقات، نهايات الحب، نهايات الهجرات، نهايات الطرق، ثم تحدث عن الألم الكبير الذي يسحق روح الإنسان في كل فصل من فصول تلك النهايات.

لم تفهم شيئا مما قال. أنهضته وساعدته في الاستلقاء على السرير.

أثناء محاولته النوم كان يسمع هدهدتها، جالسة قربه على طرف السرير، ممسكة بيده. كانت يدها ناعمة ملساء كحصاة صقلتها مياه النهر. وبدلا من أن يستسلم لحرير الأصابع وهي تمسه مسا رقيقا ليغفو استبد به شوق جارف إلى بغداد، إلى نهرها ومقاهيها وشوارعها وحدائقها، وفكر أنه سيشفى هناك، سيشفى من جميع أمراض المنفى التي بدأ يعاني منها منذ ذلك اليوم الذي وقف فيه عند معبر الرطبة الحدودي منتظرا السماح له للشروع بالهجرة الجديدة، متتبعا أثر أجداده المستكشفين الأوائل الذين قدموا إلى بغداد وسكنوا خلف السدة قبل عقود. هناك سيشفى عندما يرمي نفسه فوق تلك الأرض

التي تجتازها الرياح القادمة من الجنة، حيث تجلس أمه مكية الحسن عند الغروب، فيتمدد بجوارها ويضع رأسه على فخذها الرحيم. أراد أن يعود إلى هناك كي يراها مجسدة بوجوه آلاف النسوة اللائي عذبهن الانتظار، وأرهقهن الفقدان، وأذلهن الجوع، وفتكت بهن الحروب ونزاعات الأحزاب السياسية.

أغمض عينيه. خمنت ساندرا أن التعب أنهكه فانسابت أصابعها خلل شعره تزيحه عن جبينه. وعندما تأكدت من أنه نام غطته باحتراس. أغلقت الباب من دون صوت، وانسلت على أطراف أصابعها نحو غرفتها خفيفة كندفة ثلج.

***

ذلك الصباح استيقظت ساندرا من نومها فرأت باب غرفته مفتوحا. أطلت برأسها، فوجدته لم يزل نائما. تصورت أنه نسي أن يغلق بابه. استحمت على عجل.. رتبت غرفتها وسريرها وهي تفكر في نومه الطويل على غير عادته. اقترب منتصف النهار و لم يزل نائما. دخلت عليه بصخب. مررت يدها على خده بأصابعها الذهبية النحيلة. ارتبكت. عادت إلى غرفتها. مشطت شعرها بسرعة واكتفت بربطه من الأعلى بهيئة زهرة. ارتدت بنطال جينز وقميصا أبيض وحذاء رياضة استعدادا لأي طارئ ذلك أن سكون الجسد المسجى أثار مخاوفها وهواجسها. وقفت في باب غرفته، ليست هناك أية حركة أو نأمة أو همسة تصدر عنه. كانت تريده أن يفيق كي تتأكد من أنه بخير. صاحت به أن يستيقظ: «علييييي». تلمسته وقلبها يخفق تحت القميص. كان جسده متخشبا ملتصقا بالسرير.

اتصلت بالشرطة وأعطتهم العنوان. هرعت إلى الشرفة ونادت على النزلاء في الغرف المجاورة. قدّرت أنهم لن يسمعوها، وإذا سمعوا فربما لا يأتون لنجدتها. انفتحت بعض الأبواب والنوافذ وأطل أناس لم ترهم من قبل، بدوا كما لو أنهم يخرجون لأول مرة من أقبية أو كهوف. ومن النوافذ أو الأبواب أو الشرفات سألوها عما حدث. حاولت أن تخبرهم فاختنقت بعبراتها. تلاشى صوتها ثم استعادته بصعوبة جافا متحشرجا، وصاحت:

– عليبي!

تساءل صوت رجالي من وراء إحدى النوافذ:

– من؟

– اللاجئ العراقي.

لم يسمعها، فيما أغلق آخرون النوافذ أو تواروا خلف الأبواب.

وصل عدد من رجال الشرطة. أجروا اتصالا بخولة بعد أن عثروا على رقم تلفونها في دفتر صغير على الطاولة، ثم أجروا اتصالات أخرى كثيرة مجهولة. بعد حوالي ساعة وصلت خولة إلى المُجمَّع فسألتها الشرطة عن علاقتها بعلي سلمان وما تعرفه عنه. جاء عدد قليل من العراقيين المنفيين الذين أخبرتهم خولة بما حدث، تبعهم أفراد من مؤسسة دفن الموتى وهم يحملون تابوتا أنزلوه أمام باب الغرفة رقم ٩ وانتظروا قرار الشرطة بالشروع بإجراءات الدفن. توزع المشيعون واقفين بجوار سيارة مؤسسة دفن الموتى السوداء في الشارع العام أسفل

المبنى، وعلى درجات السلم وداخل الشقة. لم يبك أحد منهم، وحدها ساندرا كانت تبكي وهي تستند إلى سياج الشرفة.

أيلول ٢٠١٥ - أيلول ٢٠١٦

إيميل الكاتب:

abdullaallami5@gmail.com

Bibliothèque - Discothèque
COURONNES
66, Rue des Couronnes
75020 PARIS
Tél. 01 40 33 28 01 Fax 01 47 97 16 34

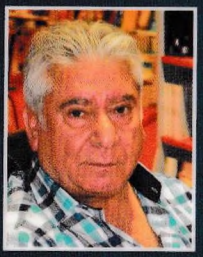

في لحظة السكون الغامر تلك تذكر ما كانت تقوله أمه مكية الحسن للنساء اللائي يجلبن لها أطفالهن المرضى لمعالجتهم بالأعشاب ويسألنها عن علامة الشفاء. روت لهن قائلة إن علي عندما كان صغيرا مرض ذات مرة. ارتفعت درجة حرارته فأخذتْ تغذيه بشراب أعدته من أعشاب هندية، وتبرّد جبينه بكمادات مبللة، وتضعه في المهد عاريا. في اليوم الثالث أضناها الخوف لأن الطفل لم يُظهِر أي تحسن وقررت أن تأخذه إلى الطبيب في الغد، وطلبت من سلمان اليونس أن يستعد لمرافقتها. أمضت النهار كله جالسة قرب المهد. وعند الغروب قفزت من الفرح وصاحت على زوجها أن يسرع ويرى بنفسه. هرع نحوها. وقبل أن يصلها هتفت: «علي سيشفى». سألها عما يجعلها تعتقد بذلك فأشارت إلى عضو الطفل. كان منتصبا. قالت إن هذه علامة على شفاء قريب. وبالفعل مع شروق شمس اليوم التالي استيقظ الطفل سليما معافى.

أبو عبدو البغل

العمل الفني للغلاف للنحات احمد البحراني

ISBN 978-2-843091-15-5

9 782843 091155